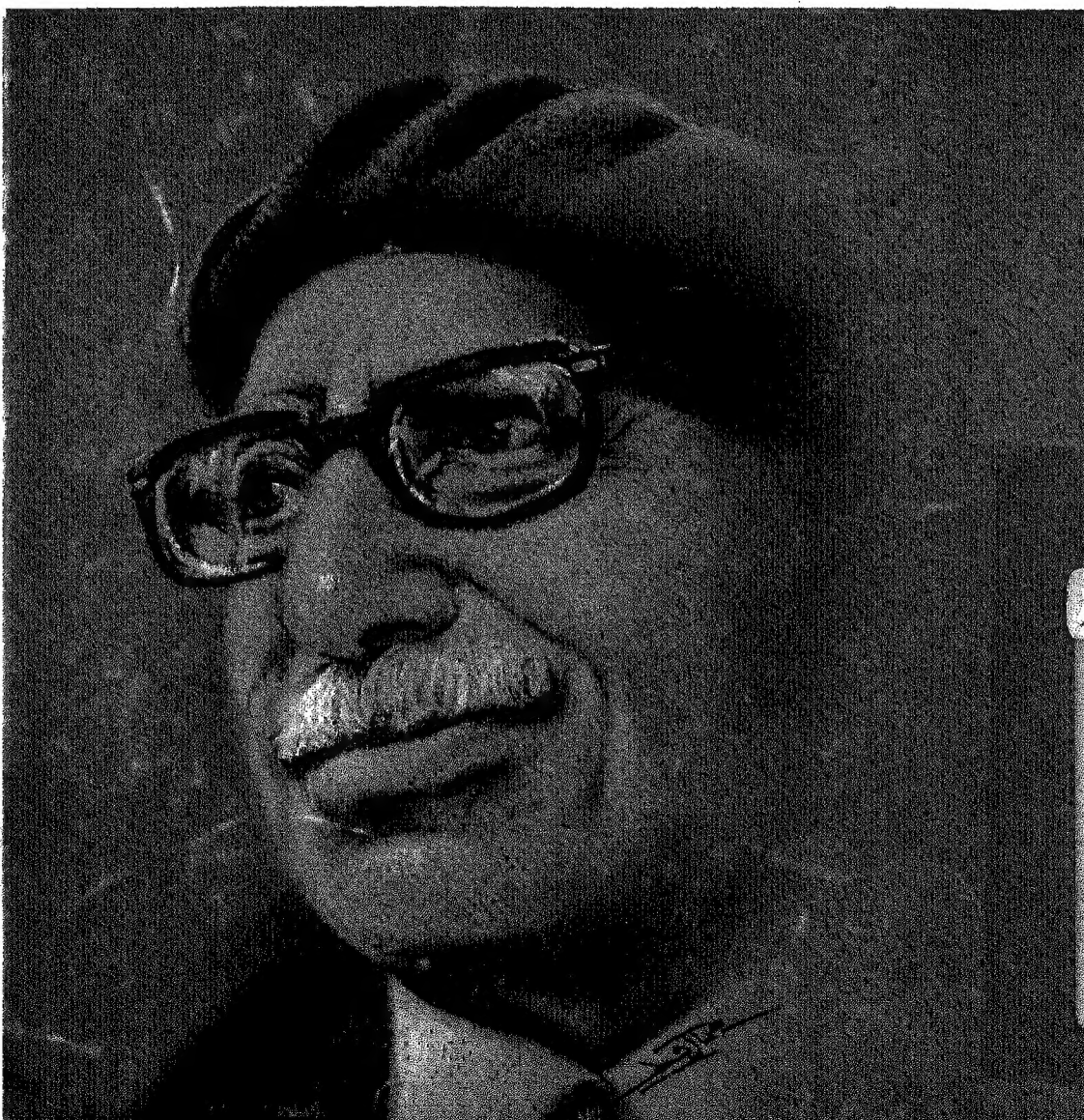




عَمَّ الشَّيْطَانِ

توفيق الحكيم



توفيق الحكيم

عَهْدُ الشَّيْطَانِ

الناس
مكتبة مصر
٣ شارع كائن مديني - الجيزة

دار مصر للطباعة

سميد جودة السحار وشركاه

كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية

- ١ — محمد ^{عليه السلام} (سيرة حوارية) ١٩٣٦
- ٢ — عودة الروح (رواية) ١٩٣٣
- ٣ — أهل الكهف (مسرحية) ١٩٣٣
- ٤ — شهر زاد (مسرحية) ١٩٣٤
- ٥ — يوميات نائب في الأرياف (رواية) ١٩٣٧
- ٦ — عصفور من الشرق (رواية) ١٩٣٨
- ٧ — تحت شمس الفكر (مقالات) ١٩٣٨
- ٨ — أشعب (رواية) ١٩٣٨
- ٩ — عهد الشيطان (قصص فلسفية) ١٩٣٨
- ١٠ — حمارى قال لى (مقالات) ١٩٣٨
- ١١ — براكسا أو مشكلة الحكم (مسرحية) ١٩٣٩
- ١٢ — راقصة المعبد (روايات قصيرة) ١٩٣٩
- ١٣ — نشيد الأنشاد (كما فى الثوراة) ١٩٤٠
- ١٤ — حمار الحكيم (رواية) ١٩٤٠
- ١٥ — سلطان الظلام (قصص سياسية) ١٩٤١
- ١٦ — من البرج العاجى (مقالات قصيرة) ١٩٤١
- ١٧ — تحت المصباح الأخضر (مقالات) ١٩٤٢
- ١٨ — بجماليون (مسرحية) ١٩٤٢
- ١٩ — سليمان الحكيم (مسرحية) ١٩٤٣
- ٢٠ — زهرة العمر (سيرة ذاتية — رسائل) ١٩٤٣
- ٢١ — الرباط المقدس (رواية) ١٩٤٤

— ٤ —

| | | |
|----|-----------------------------------|------|
| ٢٢ | — شجرة الحكم (صور سياسية) | ١٩٤٥ |
| ٢٣ | — الملك أوديب (مسرحية) | ١٩٤٩ |
| ٢٤ | — مسرح المجتمع (٢١ مسرحية) | ١٩٥٠ |
| ٢٥ | — فن الأدب (مقالات) | ١٩٥٢ |
| ٢٦ | — عدالة وفن (قصص) | ١٩٥٣ |
| ٢٧ | — أرى الله (قصص فلسفية) | ١٩٥٣ |
| ٢٨ | — عصا الحكيم (خطرات حوارية) | ١٩٥٤ |
| ٢٩ | — تأملات في السياسة (فكر) | ١٩٥٤ |
| ٣٠ | — الأيدى الناعمة (مسرحية) | ١٩٥٩ |
| ٣١ | — التعادلية (فكر) | ١٩٥٥ |
| ٣٢ | — إنزيس (مسرحية) | ١٩٥٥ |
| ٣٣ | — الصفقة (مسرحية) | ١٩٥٦ |
| ٣٤ | — المسرح المتنوع (٢١ مسرحية) | ١٩٥٦ |
| ٣٥ | — لعبة الموت (مسرحية) | ١٩٥٧ |
| ٣٦ | — أشواك السلام (مسرحية) | ١٩٥٧ |
| ٣٧ | — رحلة إلى الغد (مسرحية تنبؤية) | ١٩٥٧ |
| ٣٨ | — السلطان الحائر (مسرحية) | ١٩٦٠ |
| ٣٩ | — يا طالع الشجرة (مسرحية) | ١٩٦٢ |
| ٤٠ | — الطعام لكل فم (مسرحية) | ١٩٦٣ |
| ٤١ | — رحلة الربيع والحريف (شعر) | ١٩٦٤ |
| ٤٢ | — سجن العمر (سيرة ذاتية) | ١٩٦٤ |
| ٤٣ | — شمس النهار (مسرحية) | ١٩٦٥ |

— ٥ —

- ٤٤ — مصر صرصار (مسرحية) ١٩٦٦
- ٤٥ — الورطة (مسرحية) ١٩٦٦
- ٤٦ — ليلة الزفاف (قصص قصيرة) ١٩٦٦
- ٤٧ — قالبنا المسرحي (دراسة) ١٩٦٧
- ٤٨ — بنك القلق (رواية مسرحية) ١٩٦٧
- ٤٩ — مجلس العدل (مسرحيات قصيرة) ١٩٧٢
- ٥٠ — رحلة بين عصرين (ذكريات) ١٩٧٢
- ٥١ — حديث مع الكوكب (حوار فلسفي) ١٩٧٤
- ٥٢ — الديار رواية هزلية (مسرحية) ١٩٧٤
- ٥٣ — عودة الوعي (ذكريات سياسية) ١٩٧٤
- ٥٤ — في طريق عودة الوعي (ذكريات سياسية) ١٩٧٥
- ٥٥ — الحمير (مسرحية) ١٩٧٥
- ٥٦ — ثورة الشباب (مقالات) ١٩٧٥
- ٥٧ — بين الفكر والفن (مقالات) ١٩٧٦
- ٥٨ — أدب الحياة (مقالات) ١٩٧٦
- ٥٩ — مختار تفسير القرطبي (مختار التفسير) ١٩٧٧
- ٦٠ — تحديات سنة ٢٠٠٠ (مقالات) ١٩٨٠
- ٦١ — ملاح داخلية (حوار مع المؤلف) ١٩٨٢
- ٦٢ — التعاادية مع الإسلام والتعاودية (فكر فلسفي) ١٩٨٣
- ٦٣ — الأحاديث الأربعة (فكر ديني) ١٩٨٣
- ٦٤ — مصر بين عهدين (ذكريات) ١٩٨٣
- ٦٥ — شجرة الحكم السياسي (١٩١٩ — ١٩٧٩) ١٩٨٥

كتب للمؤلف نشرت في لغة أجنبية

شهر زاد : ترجم ونشر في باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت
عضو الأكاديمية الفرنسية في دار نشر (نوفيل أديسيون لاتين) وترجم إلى
الإنجليزية في دار النشر (بيلوت) بلندن ثم في دار النشر (كروان)
نيويورك في عام ١٩٤٥ . وبأمريكا دار نشر (ثرى كتننتزا بريس)
واشنطن ١٩٨١ .

عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية في ليننجراد عام ١٩٢٥
وبالفرنسية في باريس عام ١٩٣٧ في دار (فاسكيل) للنشر وبالإنجليزية
في واشنطن ١٩٨٤ .

يوميات نائب في الأرياف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩
(طبعة أولى) وفي عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وفي عام ١٩٧٤ و ١٩٧٨
(طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وترجم ونشر بالعبرية
عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية في دار (هارفيل) للنشر بلندن
عام ١٩٤٧ — ترجمة أبا إيمان — ترجم إلى الأسبانية في مدريد عام ١٩٤٨
وترجم ونشر في السويد عام ١٩٥٥ ، وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١
وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١ .

أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخي
لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دي فرانس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما
عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية في مدريد عام ١٩٤٦ .
عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى ،

- ونشر طبعة ثانية في باريس عام ١٩٦٠ .
- عدالة وفن : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس بعنوان (مذكرات قضاى شاعر) عام ١٩٦١ .
- بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- الملك أوديب : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ ، وبالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (ثرى كنتنتز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .
- سليمان الحكيم : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ وبالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (كنتنتز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .
- نهر الجنون : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- عرف كيف يموت : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- المخرج : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- بيت التمل : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- وبالإيطالية في روما عام ١٩٦٢ .
- الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- براكسا أو مشكلة الحكم : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- السياسة والسلام : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- وبالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (ثرى كنتنتز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .
- شمس النهار : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز) واشنطن عام ١٩٨١ .
- صلاة الملائكة : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

— ٨ —

- الطعام لكل قم : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز)
 واشنطن عام ١٩٨١ .
- الأيدى الناعمة : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز)
 واشنطن عام ١٩٨١ .
- شاعر على القمر : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز)
 واشنطن عام ١٩٨١ .
- الورطة : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز) واشنطن
 عام ١٩٨١ .
- الشیطان في خطر : ترجم بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- بين يوم وليلة : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠
 وبالأسبانية في مدريد عام ١٩٦٣ .
- العش الهادئ : ترجم بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٤ .
- أريد أن أقتل : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٤ .
- الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٣ .
- دقت الساعة : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٤ .
- أنشودة الموت : ترجم ونشر بالإنجليزية في لندن هاينان عام ١٩٧٣
 وبالأسبانية في مدريد عام ١٩٥٣ .
- لو عرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٤ .
- الكنز : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٤ .
- رحلة إلى الغد : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٦٠ .
- وبالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (ثرى كنتنتز بريس) بواشنطن عام
 ١٩٨١ .
- الموت والحب : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٦٠ .
- السلطان الحائر : ترجم ونشر بالإنجليزية لندن هاينان عام ١٩٧٣ .

— ٩ —

- وبالإيطالية في روما عام ١٩٦٤ .
- يا طالع الشجرة : ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالإنجليزية في لندن عام ١٩٦٦ في دار نشر أكسفورد يونيفرستى بريس (الترجمات الفرنسية عن دار نشر « نوفيل إيديسيون لاتين » بباريس) .
- مصير صرصار : ترجمة دنيس جونسون دافيز عام ١٩٧٣ .
- مع : كل شيء في مكانه .
- السلطان الحائر .
- نشيد الموت .
- لنفس المترجم عن دار نشر هاييمان — لندن .
- الشهيد : ترجمة داود بشاى (بالإنجليزية) جمع محمود المنزلاوى تحت عنوان « أدبنا اليوم » مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة — ١٩٦٨ .
- محمد ﷺ ترجمة د . إبراهيم الموجى ١٩٦٤ (بالإنجليزية) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣ .
- المرأة التى غلبت الشيطان : ترجمة تويليت إلى الألمانية عام ١٩٧٦ ونشر روتن ولوننج ببرلين .
- عودة الوعى : ترجمة إنجليزية عام ١٩٧٩ لبيلي وندر ونشر دار ماكملان — لندن .

— ١٠ —

— يا شيطان الفن ! لقد منحتك كل شيء .
كل قطرة من قطرات دمي هي لك .
وكل خلجة من خلجات نفسي هي لك .
فإن ظفرت بساعة من ساعات الهناء فهي لك .
وإن نمت فأنت ملك على عرش أحلامي .
وإن أفتت فأنت المالك لزمام أيامي .
شبحك لا يذهب عني في أى زمان ولا أى مكان .
إنك لا تتركني إلا وقد صرعتني المرض .
ولم يبق في رأسي الكليل ولا جسمي النحيل شيء تأخذه .
فإذا فتحت بعدئذ عيني قليلا وبدرت بادرة يقظة فهي أيضا لك .
يا شيطان الفن ! لقد أخذت مني كل شيء .
فماذا أعطيتني أنت ؟
— أعطيتك لذة « الخلق » .. !
تلك اللذة التي لا يعرفها غير إله ! ..

(ت . ١)

عهد الشيطان

وقع ذلك الحدث الذى أرويه فى ليلة من ليالى الشتاء فى منتصف الليل ... فى تلك الساعة الرهيبة التى أجمعت الأساطير على أن فيها يحدث كل جلال من الأمر . وكنت جالساً إلى مكتبى أقرأ تحت نور ضئيل . وقد تكدست أمامى كتب يعلوها التراب . وكان الكتاب المفتوح بين يدى قصة « فوست » ، وكنت قد بلغت منها تلك الصفحات التى يجلس فيها العالم الشيخ بين كتبه فى إحدى الليالى وقد تهدل شعره الأبيض على منكبيه وهو قانط من العلم ، راغب عن الحياة التى تمنحه من المعرفة ما كان يحسب أن فى مقدورها أن تعطيه البشر . وقد جلس يحصى على نفسه تلك الثمانين من الأعوام التى عاشها . ماذا صنع فيها ؟ وماذا ربح ؟ إنه لم يعرف الشباب قط . ولم يدخل قلبه ذلك الفرح بالحياة قط . ولم تدرك نفسه معنى الطمأنينة والابتسام . حتى فى ذلك الزمن

الجميل يوم كان خلانه يقولون « الحب » كان هو يقول « المعرفة » ولقد جد حقيقة في سبيلها وأحاط بكل ما سمح لعقل إنسان أن يحيط به . لقد أعطى العلم كل حياته . والآن وقد أوشكت تلك الحياة أن تذهب . الآن وهو في طريق الأوبة إلى ذلك المكان المجهول الذى جاء منه . (لو أن في الإمكان أن نسميه مكاناً ١) ألا تراه عائداً إليه بصفقة المغبون ١٢ أما العلم فإنه الآن يسخر منه بقدر ما يسخر هو من نفسه، إذ أضاع من أجله حياة كاملة فيها أشياء كثيرة غير العلم . إنه خارج من الحياة ولم يحمل زهرة ولم يستنشق عبيراً من ذلك البستان الفاتن بأشجاره وأنهاره ووروده وغزلانه . إنه لم يملأ قلبه بشيء . وإنما قد ملأ رأسه بكلام كثير سوف يأكله الدود ، كما قال « هاينى » ، مع ما سوف يأكل من لحم تلك الجمجمة الكبيرة ..

كل هذه الخواطر كانت تدور فى خلد العالم « فوست » وهو جالس أمام كتاب فى علم الفلك تحت نور ضئيل فى حجرة كالقبو من حجرات القرون الوسطى . ولم يكن حوله غير كتب مكدسة يعلوها التراب وغير سكون مطبق مخيف . ولم يكن بالمكان أحد .

ومع ذلك فقد سرت في جسم العالم المتهدم رعدة . إذ شعر أنه ليس وحده في المكان . فتردد قليلاً ثم استدار بعينيه المنطفئتين يبحث في أركان الحجر ، فلم يجد أحداً غير ظلال نور المصباح تتلاحق فوق الحائط القاتم كالأشباح اللاعبة . فتملكه خوف لم يدر سببه ... ووضع وجهه في كتابه يحاول القراءة ويلتمس فيها هدوء الخاطر . وإذا صوت هامس يلقي في أذنه :

— فوست ! فوست ! لقد سمعت ما دار في نفسك !

فجمد الدم في عروق الشيخ ، واستطرد الصوت :

— لا تخف . ألا تعرف من أنا ؟

لم يحرك العالم جواباً ولم يجرؤ على الحركة وظل في جلسته كتمثال من الشمع .

فاستأنف الصوت :

— أنا الذى يستطيع أن يمنحك ما تطلب ...

هنا دبّت القوة في نفس الشيخ ، وزال عنه الخوف والتفت إلى مكان الصوت فأبصر وجهاً غريب السحنة لا يشبه وجوه البشر ، يسم له ابتسامة عجيبة . ولم يجد لهذا الوجه جسماً ، فقد

— ١٦ —

كان محاطا بالظلام . وتمالك الشيخ وتحامل ثم قال في صوت
واجف :

— من أنت ؟

فنظر إليه الوجه نظرة ثانية وأجاب :

— وهل يعينك كثيراً أن تعرف من أنا ؟

— من أنت ؟

— دائما تريد أن تعرف . دائما حب المعرفة ! .. أيها الأحمق

الفانى ! .. أما يكفيك أنى أعطيك ما تطلب ؟ كل ما تطلب ؟

— من أنت ؟

— الشيطان .

دهش العالم ونظر إلى الوجه من جديد ، فألفاه يبسم تلك

الابتسامة التى لا تتغير . فردد فى بطاء ، وهمس كأنما يخاطب

نفسه :

— الشيطان ..

ودنا الوجه قليلا من الشيخ وقال فى نبرة لطيفة :

— أتخافنى ؟

— ١٧ —

— الشيطان ...

— لا تخف ، انتظر .

وفي الحال أبصر الشيخ ذراعين وقدمين وبقايا جسم آدمي تأتى طائرة طائعة من أنحاء الحجرة المختلفة وتلتصق بالوجه حتى صار إنسانا ، وتغير الوجه فصار كوجوه البشر ، ومد ذلك الإنسان يده إلى كرسي بجانب الشيخ ، وجلس وهو يقول كالمخاطب لنفسه : « ها أنذا إنسان مثلك ، ينبغي أن أكون إنسانا مثلك حتى تفهمنى ، إنك أيها الإنسان لا ترى إلا من كان على صورتك ! إني فى خدمتك » .

هدأ روع العالم قليلا ، وتذكر ما كان فيه منذ لحظة من ضيق بنفسه ، وتبرم بحياته ؛ فاهتز فى مقعده وصاح :

— أيها الشيطان ، أعطنى .. أعطنى ..

— اطلب ما شئت .

— الشباب .

لفظها الشيخ الفانى من أعماق قلبه المتداعى ...

فأجاب الشيطان فى تؤدة :

(عهد الشيطان)

— ١٨ —

— لك ما طلبت . ولكن ... ما تعطينى أنت في مقابل هذا ؟
إن الشيطان لا يعطى لوجه الله !
فقال الشيخ من فوره :
— أعطيك العلم .. كل ذلك العلم الذى اكتنته مدى ثمانين
عاماً .

فقهقه الشيطان :
— لا حاجة لى إلى هذه البضاعة ، علمك لا ينفعنى . إنى أريد
منك شيئاً آخر .
— ماذا ؟
— نفسك .
فلم يتردد الشيخ :
— هى لك .

عندئذ أسرع الشيطان ومد يده فى الهواء والتقط قرطاسا نشره
تحت المصباح وتناول ذراع الشيخ ، ففزع الشيخ :
— ماذا تصنع ؟

— لا تفزع من شيء . أريد قليلا من دمك تكتب لى به صكا

على هذا القرطاس . هو عهد بينى وبينك : أعطيك الشباب
وتعطينى نفسك ...

فأذعن الشيخ وكتب العهد بدمه ، وتناول الشيطان العهد
المكتوب ، ورفع يده فى الهواء ، وعاد فوضعها على جسم
الشيخ ، فإذا شيخوخته تزول عنه كما تزول الأوراق الذابلة عن
الشجرة الفتية . وإذا العالم الهرم قد أنقلب فتى فى العشرين جميل
الطلعة بسام الحيا ، مفعم النفس بالسرور ، متوثب القلب
للحب ..

لم أكد أنتهى إلى هذا الموقف من قصة « فوست » حتى
طرحت الكتاب وهمت فى وادى التأملات ..

كان الذى يملك على لى فى ذلك الوقت هو حب
« المعرفة » . كانت كل أحلامى أن أفتح فى كل صباح نافذة تطل
على عالم مجهول من عوالم هذا الكون السابح فى بحار الأسرار .
كان من يكشف لعينى المستطلعة جديداً هو الخلق عندى أن
أعطيه ما شاء من نفسى . فى تلك الليلة صحت فى الحجرة :

— ٢٠ —

— أيها الشيطان ! أيها الشيطان ! ابرز إليّ وخذ مني ما تشاء
وأعطني ما أريد .

و لم يبرز إليّ بالطبع أحد . ولم تنشق الجدران و لم تكن الصيحة
التي لفظتها إلا صوتاً مدوياً داخل نفسي ، وهو في الحقيقة همسة لم
يلغ صدها باب الحجره ؛ على أنني لم ألبث أن رحت في شبه
إغفاءة . نصب فيها الخيال مسرحاً ، وإذا الشيطان في ملابس
« مفستو » الحمراء ، ويده على مقبض سيفه ، والابتسامة الخبيثة
الساخرة على شفتيه وهو ينظر إلى قائلاً :

— أنا ديتني ؟

فهمست :

— نعم .

— ماذا تريد مني ؟

— المعرفة .

فضحك ضحكة عالية طويلة ، اهتزت لها الريشة القائمة على
قرنه :

— هل تدرك مدى هذه الكلمة ؟

— ٢١ —

فقطنت إلى مراده وصحت مستدركا :

— نعم . نعم . أدرك أنك أنت كذلك لا تحيط علماً بمدى هذه
الكلمة . إني ما أردت منك المستحيل . وما قصدت أن تعطيني
« المعرفة » ذاتها . إنما أردت أن تمنحني « حب المعرفة » . أريد أن
تمنحني تلك النفس التي تعيش للمعرفة . أريد أن تعطيني ما أخذت
من « فوست » . أعطني « نفس » فوست التي أخذتها منه . أريد
أن تكون لي نفس « فوست » أو نفس « جوته » !

— وماذا تعطيني أنت في مقابل هذا ؟

— كل ما تطلب .

— الشباب .

— هو لك .

قلتها في غير تردد . فنظر إليّ « مفستو » نظرة طويلة . نظرة
العجب أو الإشفاق — لو أن الشيطان يشفق أحياناً — أو نظرة
التاجر الماكر لصفقة خاسرة وقعت من غر قاصر . وقال :

— سوف تندم .

— أبداً .

— ٢٢ —

— أفهم أن ييذل كل غال في سبيل « الشباب » . أما أن
« الشباب » هو الذى ييذل ... اسمع نصحى أيها الفتى . إني لم
أعتد إخلاص النصح لأحد . ولكنى أقول لك : لا شيء في الوجود
يعوض الشباب !

— المعرفة ، المعرفة ، المعرفة .

فضحك الشيطان ضحكة صغيرة هازئة ، وقال كال مخاطب
لنفسه :

— كان فوست يقول ذلك أيضاً في صباه !
فقلت في تحمس أعمى :

— حب المعرفة هو شباب العقل ، هو الشباب الأبدى ، هو
السمو الإنساني الذى سجدت له الملائكة إلا أنت ، أيها المتطاول
على عرش فكرنا النوراني !

— عرش فكركم النوراني ! ماذا أقول لهذا الفتى ؟

— إني أعرفك وأبغضك ، إنك هنا على هذه الأرض لا عمل
لك إلا أن تطفىء هذه المصابيح العظيمة التى تزين هاماتنا ، إن فى
يدك عصاً طويلة كتلك التى كان يحملها « عفاريت الليل »

— ٢٣ —

يطفئون بها في مطلع الفجر « مصاييح الغاز » في الطرقات .

— ما أسخف مصاييح الغاز !

— نعم ، ولقد ذهب عهدنا بظهور الكهرباء ، واختفت معها « عفاريت الليل » بعصيا . أنت أيضاً قد آن لك اليوم أن تختفى بسيفك وريشتك ، فما من أحد يرضى اليوم أن يبيع « مصباحه » من أجل شيء .

— لقد باع « فوست » مصباحه من أجل فتاة .

— كان ذلك مصباحاً من الغاز .

— من الغاز أو من الكهرباء ، النور هو دائماً النور !

— يا عدو النور . أعطني النور وخذ مني ما تشاء .

فقال الشيطان :

. O.K. —

وخلع قلنسوته ومسح بها الأرض بين يدي إغراقاً في التحية على طريقة فرسان إسكندر دوماس ، وتحرك للانصراف ، فاستوقفته :

— ألا نكتب عقداً ؟

— ٢٤ —

— لا ضرورة منك للعقود والعهود . إني واثق بشرفك .

— ولكنى أنا ... معذرة .. إني لا أثق بشرفك .

— جربنى هذه المرة .

وانحنى لى انحناءة كبيرة ثم اختفى .

* * *

مضى على تلك الليلة ثلاثة عشر عاما التهمت فيها الكتب التهاما
وأحطت بمختلف العلوم والفنون علما وعشت مع الفلاسفة
والأدباء والموسيقين والمصورين وأحببت فيها « المعرفة » حباً
كالجنون . فلم أكن أطيق صبراً على جهل فرع من فروعها . وكنت
أحياناً لا أملك من النقود غير الضرورى لأكلى بقية الشهر وأصادف فى
واجهة الخانات كتاباً أو كتابين ، فما أحجم ، وأدفع فيهما ما
معى ، وأتبلغ طول أيامى بمرق الأرز ونقيع الشاى . وذهب بى
الجنون إلى حد الرغبة فى الاطلاع على ما لا لزوم لاطلاع أديب
عليه . فنظرت فى كتب الفلك والعلوم الروحانية والرياضيات
العليا . وكانت أيام راحتى تنفق فى هياكل الفن ومتاحف التاريخ
الطبيعى ودور الكتب والآثار . وكانت لى جلسات طويلة فى

ركن قهوة صغيرة منفردة آوى إليها وحيداً أفكر ست أو سبع ساعات متتالية في مسائل عويصة من مسائل الفلسفة المطلقة ، أو قضايا الفكر ، أو مشاكل العالم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ولكم هدمت في رأسى مدنيات وأقمت بدلها حضارات خيالية ذات نظم مثالية على نحو ما فعل أفلاطون وتوماس مور . ولكم ألحدت ثم آمنت وضللت ثم اهتديت . ولكم كتبت ومزقت . ولكم جهدت في سبيل تلك اللذة العليا التي حسبتها غاية الإنسان التي ليست بعدها غاية . ولقد همت بالنور وعشت حول النور حتى أحسست أن جسمى يرق وأن لنفسى أجنحة كأجنحة الفراش . ولقد صرت كالهواء أو كالملائكة أسهر الليل ساجحاً في أجواء الفكر فوق كتاب مفتوح تحت مصباح مضىء ، حتى إذا جاء الصباح رقدت وهربت من الناس والضجيج . إلى أن نهتني آخر الأمر خادم عجوز قائلة :

— حياتك هذه ليست حياة . انظر إلى وجهك في المرآة !
فنظرت ملياً في مرآة خزانة الملابس فارتعت . ما كل هذه
التجاعيد حول عيني . وما هذا الظهر الذى تقوس وانحنى .

— ٢٦ —

وما هذا النحول وهذا الشحوب .. أترانى قد نسيت جسمى طول
هذه الأعوام ؟ أم تراه الشيطان قد تقاضى الثمن دون أن أعلم ؟
وهالنى منظرى وأنا أضع إصبعى على تلك الخطوط الخفيفة على
صفحة وجهى كأنها صك بزوال زهرة الحياة إلى الأبد ، فما
تمالكت أن صحت :

— الشباب . الشباب . لقد أخذ الشباب !

في النوم

إذا جن الليل ، ورقد الناس ، وسكنت الكائنات ، قام هو في خفة الطائر ، ورقة النسيم ، ينسج قصصه العجيبة بأنامل لا يعرف وصفها إنسان . ذلك هو الحلم . فنان حاذق يأتي بالمعجزات في رؤوس النائمين .

وهو ككل فنان محترف كتب عليه الإنتاج في كل ليلة ، لا يبرأ من الإسفاف ، ولا يستطيع أن يجيد في كل حين . فهو لا يخرج دائماً في كل الرؤوس آيات متناسقة البناء شيقة الحوادث مستقيمة التفكير . إنه هو أيضاً ضحية « الروتين » الذي يقتل الفنانين . لكنه إذا أبدع أوحى . وإني لأعرف كتابا يستلهمون الحلم . وإني لأذكر خبر كاتب روسي أو مجري كان يأكل قبل النوم حتى الكظلة طالباً التحمة راغباً في الكابوس يصور له من الحوادث المخيفة ما ينفعه في استنباط قصة . أما أنا فأبغض الكابوس

ولا أريده ، ولو ألهمنى خير القصص فإن لحظة أقضيها فى جوه الخائق لأشق على نفسى من الجحيم . غير أنى لا أنسى رؤيا منسجمة الفكرة متصلة الخيوط ، رأيتها ذات ليلة ، فاستطاعت أن تشغل بالى فى الصباح ، وأن تقبضنى على القلم ، وأن تستكتبنى هذه السطور :

رأيت أنى معها فى حجرة واحدة . أما هى فعادة حسناء.ذلك النوع من الحسن الذى أحبه . ولست أدرى كيف عرف الحلم ذوقى فاختر لى مثل هذه المرأة ! جلسنا معاً وهى فى ثوب أخضر خفيف . وكأن بيننا حباً قديماً ، والحلم خير من يلعب بالزمن كما يلعب المصور بالألوان . فلم نكن نعيش ، أنا وهى ، إلا فى ثوان .. لكنها كالأعوام . لها ماض وذكريات . يحيط بنا إطار مصنوع من جوهر لا أدرى ما هو ، لعله ما يسمونه « السعادة » . وفجأة ، طرق علينا الباب . وظهرت خادم تعلن فى صوت خافت أن زوج الفاتنة قادم . هرج واضطراب وقعا فى الحجرة . فقفزت أنا من مكاني أبحث عن حذائى . ونهضت هى فى سرعة الريم إلى المرأة تصلح من شأنها . وتملكنى الوهم وخرج الموقف فعجزت عن

— ٣١ —

إدخال قدمي في الحذاء ، ورأت هي ما أنا فيه . فصاحت بي :

— عجل بالخروج !

— لا أحب إلى نفسي الآن من الخروج سالما . لكن الحذاء ..

— ألا تريد أن تنصرف ؟

— حافيا ؟ هذا لا يجوز . وهل أنت ترضين لي الخروج على

هذه الحال ؟

فلم تجب وجذبتني من ثيابي ، ودفعتني إلى الباب ، فخرجت
أحمل حذائي في يدي وإذا أنا — وجهها لوجه — أمام رجل وسيم
الطلعة أنيق الهيئة حيائي باسماء فارتجفت ونظرت إلى عينيه ، فلم
أرفيهما غضبا ولا سخرية . وأشار لي في كياسة أن أضع الحذاء في
قدمي على مهل . فقلت متلعثم اللسان :

— أشكرك يا سيدي على هذا اللطف ...

وحاولت أن أفعل ما أراد فلم أستطع ، فلقد حزن الحذاء مرة
أخرى ، وأبى أن يلين لتوسلاتي الحارة ولعرق المتصبب في هذا
الظرف المؤلم . وخرجت « الحسناء » زاهية كالقمر ، فما إن
رأت الرجل ، والرجل رآها . حتى وقع أحدهما في أحضان

الآخر ، وقبلات ..

وشعرت فى أعماق نفسى وقتئذ أنى لأصلح للبس الحذاء ولا
للانصراف ، ولا لصنع شىء فى هذا الوجود ! فجلست القرفصاء
أنظر وأسمع ولا أدرى لى مصيراً . وفرغا من القبل ولكنهما ظلا
متعانقين وهى تقول له :

— أهذا شغفك لى ؟ مضى عام دون أن أسمع عنك خبراً ! ..

— ألا تعرفين ما حدث ؟ لقد أمسينا من أصحاب الملايين .

— ملايين ؟! كيف ؟ كيف ؟ أخبرنى ! ..

— أنا الآن « مليونير » .

— أتقول حقاً ؟ وافرحتاه ! . تعال فقص على كل ما حدث منذ

أن تركتنى وسافرت إلى تلك البلاد النائية !

وتناولت يده ، تقوده إلى الحجرة ، فعثرت قدمها الصغيرة

بشخصى الحقير ، ولم يزل موضوعاً إلى جانب الحذاء . لكن أى حذاء .

إنى فيلسوف . كما إن هذا الرجل المحترم ، زوجا كان أو غير زوج ،

فيلسوف هو أيضاً فيما يبدو لى . ذلك أنى لم أكد أسمع أن الرجل

صاحب ملايين حتى أدركت أن لا محل الساعة للبكاء على حب !

ورنت فى أذنى تلك اللحظة كلمة هائلة ضاحكة : « الذهب » ! كما

رنت ولا ريب في قلب الحسناء فنسيت كل شيء . وصرت في نظرها ، أنا وحذاءي على عتبة الباب ، كائنين متساويين ! نسيت كل شيء وشيكاً لأن « الذهب » كلمة جليلة عظيمة . لها صوت مدو مهيب كصوت حوافر جياد مطهمة على أرض من الرخام الأصفر .. كلمة كالدخان السحري ترى خلالها القصور والعروش والحلى والتيجان ! ونسيت أنا أيضاً كل شيء كان ويكون . حتى ما أنا فيه من ذل وتعس . كما نسيت أن أنهض من الأرض وأن أرفع يدي عن حذاءي الذي لم يوضع في قدمي ولن يوضع . ومراي هذان السعيدان .. في حرص واحتياط حتى لا يعثراني في طريقهما إلى الحجرة . فقلت في أدب وأخلاص :

— دوسا ، لا مانع عندي مطلقاً من أن تدوسا !

واستحوذت عليّ مشاعر غريبة . لست أعلم لها إسماً بين مشاعر الناس . فلم ألبث أن تقدمت نحو الرجل وقلت له في احترام عميق :

— لقد أشرق النور في هذا البيت مذ حللت به . وإن سيدتي كانت شديدة القلق كثيرة الهم لغيتكم الطويلة حتى أسعدها الله أخيراً بأوبتكم الظافرة الميمونة .

فالتفت إلى الرجل في استغراب خفيف . ولكن الدهشة كلها كانت دهشة المرأة . ولم أمهلها حتى تفيق . فوجهت إليها من فوري الخطاب :

— أما كنت يا سيدتي تذكرينه دائما في شوق ولوعة؟ ها هو ذا قد عاد ولا ينقصكما الآن إلا خلوة تتبادلان فيها رقيق العتاب ، حتى تصفو القلوب ويتصل بينكما ما انقطع بطول الفراق . وانتظرت أن أحظى منهما بجواب . فلم ألق إلا سكوتا بارداً ونظرات فاترة . وتحركا آخر الأمر نحو الحجرة ودخلاها وأغلقا عليهما من دوني الباب . وأنا واقف جامد . وكأني لا أعيش . وثبت إلى نفسي قليلا . فإذا عرق يسيل من كل بدني . لماذا صنعت هذا وقلت هذا ؟ وهل سألتني واحد منهما أن أكون لهما رسول سلام ؟ وهل هما في حاجة إلى ، حتى يدخل قلبيهما الصفاء ؟ ومن قال إنهما كانا غاضبين ؟ إنهما الآن مثل كل متحابين مؤتلفين لا يطلبان إلى أحد أن يمشى بينهما بخير أو بشر . ينبغي أن أفهم الآن أني قد طردت من الفردوس حافي القدمين ..

وانتهى الحلم من تأليف قصته ، وسكت عن الكلام المباح وقد

— ٣٥ —

أدركه الصباح . واستيقظت فوجدت أنى حقيقة عارى الأقدام
وقد سقط اللحاف عنى . ولكن ستار النسيان لم يسدل فى رأسى
على الرواية . فقد تركت فى نفسى أثراً عميقاً . وطفقت أقول :
« حتى الحلم ، ذلك الفنان البارع ، لا يملك لمثلى من ذلك الجوهر
الطيار الذى يقال له : « السعادة » غير مقدار قليل لا يشفى
الغليل » ! ..

« راديووم » السعادة

استعرضت في رأسي البارحة شريطا ذا ألوان من ذكريات الماضي . أما الألوان فكانت خضرة داكنة لأشجار الزيزفون والكستناء المحيطة بذلك الوكر الجميل المسمى « أورياج » ، ألفته يد الطبيعة في بطن وادس حقيق من وديان « الألب » ، ليذكر البشر بالفردوس المفقود .

ولقد هبطت هذه اللجنة في شهر أغسطس عام ١٩٣٨ أحمل حقيبة واحدة ، فيها « بذلة » واحدة وكتاب واحد : هو « العقد الفريد » لا بن عبد ربه بكامل أجزائه .

ولم تكن الحقيبة تتسع لغير هذا الثوب وهذا الكتاب ، ولم يكن شيء أبغض إلى نفسي في الأسفار من كثرة الحقائق ، فطال تردددي وأنا أجهز للسفر : أحمل « بذلة » أخرى وأترك « ابن عبد ربه » ؟ واستقر عزمي آخر الأمر على إثارة « الزميل » أعبر به

— ٤٠ —

البحار والجبال ، وأصطحبه إلى بلاد لم تطأها قدمه ، وأريه مناظر لم ترها عينه ؛ فللأديب على الأديب حق ، وليس من الوفاء حرمان ابن عبد ربه مثل هذه النزهة . فنبذت الثياب وأخذت الأديب ، وانطلقنا ...

بلغنا جنة « أورياج » ، ونزلنا فندق « الروض » وهو بناء جميل أقيم على بساط من العشب ، قد اضطجعت عليه حور من الفرنسيات يتحدثن في ظل الأغصان المدلاة إلى ولدان وفتيان ، أو يصغين إلى أنغام موسيقى يحملها النسيم ، تعزفها فرقة في شبه ميدان وسط المصيف .

وكانت مائدة طعامي بالفندق في طرف ناء ، فلقد احتل من نزل قبلي الأفاريز المشرفة على المناظر الرائعة ، ولكنى لم أحرم مع ذلك منظر مائدة إلى جوارى جلس إليهما فتى وفتاة ، قيل لى إنيهما تزوجا حديثا .

لقد كانا زهرتين ناضرتين في باقة « فندق الروض » . وكنت أنا دائما وحدى ، ليس معى من رفيق غير « ابن عبد ربه » وقد

وضعته أمامى فوق المائدة إلى جانب زجاجة « الفيشى » .
نعم، لم يكن يخطر لى على بال أن هذا الأديب يلزمنى على هذا
النحو فى كل مكان ، لقد اعتدت ملازمته كما اعتدت من قبل
ملازمة عصاى .

فأنا لا أخرج من الفندق فى الصباح ، ولا أعود فى المساء ،
ولا أذهب إلى قهوة ولا إلى ملهى إلا ومعى « ابن عبد ربه » .
حقيقة أن فى جوف هذا الأديب كثيرا من طلى الحديث ، وهو خير
أنيس وجليس فى مثل وحدتى وعزلتى .

ولكن .. أما كتب لى أن أظفر بجليس أجمل منه سحنة وأعذب
منه صوتا ؟ لقد كنت أتأمل من طرف خفى هذين الزوجين
السعيدين ، فيخيل إلى أنى أرى منهما أشياء . إنهما لا يتحادثان
كثيراً ، وكل منهما يأكل وهو مطرق ، ولقد لاحظت أن الزوج ما
يكاد يفرغ من أمر طعامه حتى يترك امرأته ويختفى اختفاء لا
يظهر بعدها إلا على مائدة الوجبة التالية . وكان الذى يشغل
فكرى وقتئذ البحث عن « قهوة » هادئة أجعلها مقراً لى وللأديب
الذى معى وللورق الذى فى جيبى . فأنا لا مطعم لى فى رياضة

شاقة كتسلق الجبال ، ولا رياضة هادئة كلعب « التنيس » .
 وليس فى الناحية جدول قريب أصطاد منه السمك ، وهى
 رياضتى الوحيدة التى أحذقها ... (أستغفر الله على كلمة
 » أحذقها « وهو الشاهد العدل على مبلغ حذق إياها !) .
 وعثرت آخر الأمر عند أقدام أشجار باسقة قد تهدلت أغصانها
 كجدائل الشعر الكثيف ، على « قهوة » صغيرة فى شبه كوخ من
 خشب نثرت حوله المقاعد والموائد . فقلت فى نفسى : ها هنا
 مكانى . فاتخذت مقعداً فوق العشب ، والتفت أطلب الساقى
 يحضر إلى فنجانا من الشاى . فإذا أنا أمام ساقية كالبدر . وإذا
 أخرى على باب الكوخ كالشمس . وإذا ثالثة وهى الصغرى تخطر
 فى خفة الغزال بين الموائد ، ناثرة قطرات اللطف والظرف ، فى
 صورة ابتسامات ساحرات ، ذات اليمين وذات الشمال . إذا قلت
 إنى فى حياى لم أر أظرف من هذه الفتاة ما كذبت ، وإذا أقسمت
 أن هذه الفتاة ما خلقت إلا لتلقى نظرات الإعجاب من الناس لما
 حنت . الدليل تلك الأعين التى ترمقها من كل جانب ، وتلك
 الأفواه التى تنادىها من كل مائدة . كان اسمها « فرانسواز » .

— ٤٣ —

و فرغت من دهشى قليلا فأجلست ابن عبد ربه على مقعد
خال بجوارى ، وأردت أن أشير إلى الفتاة لأطلب فنجان الشاي ،
وإذا غيرى يسبقنى :

— فرانسواز ! كأسا من البيرة .

فانتظرت لحظة . ثم هممت بندائها . وإذا صوت آخر :

— فرانسواز ! كوباً من شراب البيرتقال !

فسكت مرغماً . ثم عاودنى الأمل فرفعت رأسى إليها وإذا
صبيحة :

— فرانسواز ! فرانسواز !

فالتفت فإذا ذلك الزوج الشاب الذى يهجر زوجته فى الفندق
بعد كل طعام ، قد جاء فى شبه ركض وجلس إلى مائدة قرب
مكان الفتاة ، وطفق يحدثها حديثاً ازدحم به فمه ، وهى تضحك أحياناً
ضحكاً رقيقاً يتمايل له غصنها الرشيق ، وأشرقت السعادة فى وجه
الشاب . وإذا صفأؤه قد عكسه صوت فتیان آتين بملابس
« التنيس » يصيحون قبل أن يجلسوا !

— فرانسواز ! فرانسواز !

فالتفتت إليهم الفتاة وابتسمت . ثم استأذنت محدثها وانطلقت إليهم . فاستقبلوها في شبه هتاف وظلوا لحظة يتضحكون . هؤلاء فيما يخيل إليّ فتيان من طلبة الجامعات . فإن هذرهم وضجيجهم وما يبدو من سنهم ينم عن ذلك . وكان أكبرهم سنًا فتى معتدل القامة جميل المنظر في سروال « التنيس » الأبيض وقميصه الخفيف وسواعده العارية . وكان هو أكثرهم اهتماماً بأمر الفتاة . طفقت أنظر إلى كل هذا ، وذكرت أن ذقني لم يخلق منذ ثلاثة أيام ، وتلك أيضاً عادة من عاداتي . فأنا لا أفكر في ذقني وهندامي إلا مصادفة . ثم ذكرت قلنسوتي « البيرييه » التي تهبط إلى أذني كأنها « لبدة » وعصاي الغليظة وكتابي الضخم بغلافه السميك القديم . كأنه سفر من أسفار السحر والتنجيم . فأدركت أن منظرى لن يؤهلنى إلى طلب فنجان الشاي في هذه القهوة ! أنهنض إلى غيرها ؟ هذا مستحيل . إن هذا الجو الشعري الجميل الذى يكتنف هذه القهوة هو في ذاته متعة دونها كل متعة . وطال جلوسى . وطالت مشاهدتى ، ومر الوقت سريعاً دون أن أشعر به ، وقام أناس ، وقعد أناس ، وأنا فى مكانى لا يشعربى أحد . ولا أطلب شيئاً إلى

— ٤٥ —

أحد . لقد خجلت أن أسترعى التفات الساقيات الثلاث ما دامت
أنظارهن لا تريد أن تقع على مثلى ! وجعلت أسائل نفسي في نبرة
مريرة ، وروح كسيرة :

— ماذا يمنعني من أن أعيش كما يعيش هؤلاء الأحياء ؟ ما
أحسبني قد بلغت سن اليأس . وأنا الآن بالمصيف في شهر راحة .
ما يمنعني من حلق ذقني كل صباح وترتيب شعري وتعريضه
للشمس والهواء . وارتداء مثل هذا السروال الأبيض الجميل
والقميص ذي السواعد العارية ؟؟ . لم ألتق جواباً عن سؤال .
ولكن نظرة منى وقعت على صديقي « ابن عبدربه » الموضوع إلى
جانبي أدركت معها في الحال من المسئول عن كل ما صرت إليه !
نعم ، وأسفاه ، نعم . ووددت لو أنقض عليه فأقطعه تقطيعاً
وأمزقه تمزيقاً . ولكني اكتفيت بحمله بين يدي في سخط
شديد . كمن يحمل كتابه الذي سطر فيه لعنته وقدره المحتوم .
وعند ذلك حانت من الفتاة التفاتة إلى . وفطنت إلى
وجودي ، فأسرعت إلى تقول في ابتسام واعتذار :

— نسيتك يا سيدى .

— ٤٦ —

فأجبتها في ابتسام وتسامح :

— لا بأس . إنك على كل حال لم تنسى شيئاً ذا خطر .
وأحضرت إلى ما طلبت . ولم نتبادل كلاماً أكثر من ذلك .
ولكنني سعدت به . فنحن معشر الأدباء المساكين نرضى بالقليل .
ويكفى لإسعادنا وإلهامنا أتفه الأشياء .

* * *

كثر اختلافي إلى هذه القهوة . وكنت في كل مرة أرى عين
الأشخاص يلعبون عين الأدوار .

فالتألم في لباس « التنيس » ينادى « فرانسواز » في كل
لحظة ، ولا يشبع من الحديث معها ، ولا يضمن بطلب مشروب
بعد مشروب . استبقاء للساقية الجميلة إلى جواره . ولقد سمعته
ذات مرة وقد انفلتت من فمه هذه الكلمة :

— أوه ! لقد خربت وأفلست . وأضعت كل نقودي في هذه

القهوة !

ويلبث في سروره وضحكه وهذره ساعة ثم يمضي إلى ملعبه ،
مطوحاً « بمضربه » في الهواء فرحاً سعيداً .

ويأتى الزوج الشاب ، وقد ترك زوجته فى الفندق وحيدة متدمرة تعسة مرتابة ، فينادى : « فرانسواز » ويطلب السعادة هو أيضاً ساعة فى عينيها الباسمتين غير مبال بخاطر فقد زوجته فى هذا السبيل .

تأملت كل هذا لحظة . ثم قلت لنفسى :

— هذان شابان جميلان . ومع ذلك فقد أضاعا شيئاً فى سبيل لحظة هناء إلى جوار هذه الفتاة . ماذا أعطى أنا من أجل لحظة تحدثنى فيها هذه الفتاة ؟ نعم ، هنا كل سعادتى ومطعمى : أن أسترعى اهتمامها لحظة وأن تقبل على تحدثنى حديث المشغوف بمحدثتى !

لكن .. هل هذا ممكن الحدوث وقد ابتليت بصحبة هذا الزميل المنحوس ؟ وانكبت على ورقى الذى كنت قد نشرته ، وفتحت صدر ابن عبد ربه أمامى ووضعت فيه همى . وكأن القدر شاء مداعبتى أو أراد متعمداً أن يكشف لى قليلاً عن جوهر نفسى المحجوب عن عيني ، فأحدث المعجزة . وإذا الفتاة تدنو منى مبتسمة متعجبة وتقف لحظة ترمق سطور « ابن عبد ربه » وهى

— ٤٨ —

صامتة ، وفطنت إلى قربها ، فاضطرب قلبي ورفعت رأسي .

فابتدرتني قائلة في همس :

— أهذه كتابة صينية ؟!

فضحكت وقلت :

— بل عربية .

— ما أعجبها ! أتستطيع أن تقرأ هذا « النيش » في سهولة ؟

— بالطبع . وأكتبه أيضا .

— وتكتبه ؟

— نعم . انظري ..

ومضيت أكتب أمامها ، وهي دهشة مسرورة . وجعلت تستفسرني كثيراً من معاني الكتاب . وقاطعها النداء من كل جانب ، فكانت تذهب لتلبي ثم تعود إلى تحادثني مغتبطة ، وقد تطرق الحديث إلى مواضيع كثيرة . وقد أدركت من حديثي أن الكتابة صناعتي ، فأقبلت تعرض علي ألوانا من حياتها تصلح قصصا . وبدأ على السرور أول الأمر . وبدأت أحترم ابن عبد ربه . فبفضله تم كل هذا ، ولكن ما كدت أتردد على القهوة مرة أخرى وتقبل

علّى الفتاة تحادثنى ذلك الحديث الطويل فى مختلف الشئون ، حتى أحسست أن كل شىء قد تغير فى نفسى ؛ فالأشجار ليست الأشجار ، والجنة ليست الجنة ، ووجهها لم يعد فيه السحر القديم ، والجو الشعرى قد ارتفع عن القهوة . ذهب السحر ومهتكت أستار الأسرار . وما أنا والفتاة الآن إلا صديقان
ثرثران !

وشعرت عندئذ أن لا شىء عاد يربطنى بالقهوة ووددت لو أتركها إلى غيرها حتى أُنفرغ للعمل ، وأتم الفصول الأولى التى بدأتها مدفوعاً بتلك القوة الهائلة من لحظة سعادة خفيفة مرت . عند ذاك فهمت أن السعادة التى تلزم لنا نحن الفنانين ؛ لنقوم بالأعمال الكبار ينبغى أن تكون بمقدار !! مقدار صغير ثمين مثل « الراديوم » فإذا انغمرنا فى حوض من هذه المادة السحرية فإنها تنقلب فى نظرنا ماء قراحاً لا فعل له ولا أثر .
وتأبطت « ابن عبد ربه » أخيراً ، وانصرفت به وقد ...
انتصر !

في حانة الحياة

ساقون ثلاثة في « حانة الدنيا » إذا ناديتهم أقبلوا بالكؤوس
وهم يرقصون ، وفي عيونهم وشفاههم بسمات خفية ساخرة لا
ترتاح لها نفس ... أول « جرسون » من هؤلاء طفل ؛ وهو أبداً
طفل وعمره خمس سنين ... ويدعونه « الحب » ؛ والثاني رجل
وهو أبداً رجل وعمره أبداً أربعون سنة ... ويسمونهم
« الشيطان » ، وثالثهم لا عمر له ويدعى « الموت » والموت هو
« البارمان » لهذا الحان . وهو الوحيد من بين الثلاثة الذي لم أفكر
 يوماً في الدنو منه ؛ وقد زهدت من أجله في الشرب على
« البار » ! .. منظره لا يعجبني وحسبي منه وقفته الوقحة
و« فوطته » القذرة التي بها ألف خرق وضحكته التي كسعال
المسلولين وأسنانه الصفراء العفنة من تأثير إدمانه على التدخين
والمغيبات . إنه « يقرفني » ومحال أن أتناول شيئاً من يده طوعاً

واختياراً ...

أما « الشيطان » فيعجبني بطلاقة وزلفاه وذكائه . ولولا علمي أنه محكوم عليه غايا ... وأنه من أرباب السوابق في جرائم النصب والاحتيال ... لركنا إليه ... أنا وكافة « الزبائن » ...

أما « الحب » فالويل من هذا الطفل الجاهل الجميل ! إنه يأسرني بلطفه ورقته .. أجل إنه الساقى الوحيد الذى أتناول من يده كل شيء ... وبلا تحفظ . غير مبال إن كان ما يعطيني سماً أو « شمبانيا » ...

ناديته في الربيع الماضى فأقبل يحمل إلى الكأس ... ووقف ينظر إلى برقة ساحرة ويتسم إلى بابتسامة خلافة تحوى أشياء لم أكن أدركها في ذلك الحين :

— ماذا تريد ! ... (البقشيش) ؟ ...

— كلا .. أريد ألا تطلب إلى شيئاً بعد ذلك ... إياك أن تطلب قليلا من الثلج ... إن طلبت قليلا من الثلج فلن آتى لك بطلبك ...

— ٥٥ —

— اطعثن ... لن أطلب إليك شيئاً .. أبداً ... لا (ثلج)
ولا (صودا) ...

وأقبلت على الكأس ... لكنه استوقفني أيضا . وغافلني وحمل
الكأس وجرى قليلا . ثم ضحك ضحكة صبيانية وقال في نبرة
ملائكية :

— سأعذبك ...

غير أني لم أسمع ولم أر ولم أدرك إلا شيئا واحداً : إنه حمل
الكأس وابتعد . فارتجفت وصحت مدفوعا بالرغبة والظماً ...
— هات الكأس يا جرسون ...

فاقترب به من شفتي ... وقال بنفس الصوت الموسيقى
العذب :

— سأعذبك !

— هات الكأس يا جرسون !!

— سوف تلعنني ...

— أنا ؟؟!

— سوف تمقتني ...

— ٥٦ —

— أنا عبدك ...

— سأعذبك ...

— هات الكأس ...

— خذ !

* * *

ومضى عام :

— يا جرسون . يا جرسون !

— ماذا تريد ؟

— الثلج .. فى الحال ... الثلج !

— لقد أنذرتك .

— أرجو منك .. قطعة واحدة من الثلج !

— قد أنذرتك .

— قطعة ... ولك ما تريد ..

— هيهات . هيهات !

— لا تبتعد ؟ ... لا تهزأ بى . لن تتركنى قبل إحضار الثلج .

— هيهات . هيهات !

— ٥٧ —

— لقد خدعتنى ... ما كنت أظن طفلاً بريئاً جميلاً يجرؤ على

هذه الجريمة : يقدم إلى بدل ماء الكروم ماء النار !

— الكروم والنار ... يا لك من غر ساذج ! ... الخمر والنار

هما عنصرا حياتى . وهما لون خدودى ولون شراى !

— قطعة من الثلج ... ولك ما شئت !

— محال ... !

— رحماك ! .

— لو كنت عاقلاً لأدركت أن الثلج ليس فى عهدتى .

— لماذا ؟؟ ... لماذا ؟؟ ...

— سل صاحب الحان ...

— أنقذنى ... لعنة الله عليك .

— الثلج لا يمكن أن يكون فى عهدتى .

— آه يا ملعون !! وما العمل ؟

— عليك بجرسون آخر ؟؟

— جرسون آخر ... من ؟؟ من ؟؟

فجرى « الحب » إلى « الشيطان » وأسر إليه كلاماً ثم أشار

— ٥٨ —

بيده إلى أنا « الزبون » المسكين ، وإذا « الشيطان » قد أقبل
نحوى :

— أنا .. هو ذا ... ما طلبك ؟ ... أنا القدير على تنفيذ رغبتك

... مرني أطع أيها السيد النبيل !

— الشيطان !!

— خادمك . !

— كلا مستحيل ! أنت من أرباب السوابق .

— مظلوم ! ... وربك لم يثبت ضدى شيء ... لا تصدق

وشايات الناس . وربك إني متهم زوراً وبهتاناً .

— ما الدليل على براءتك ؟

— هاك ... « رخصتى » ... بيضاء كقلب الجنين !!

— أليست ... مزورة ... ؟؟؟ على كل حال أنا فى حاجة إليك

الآن ! إنى فى حاجة شديدة إليك .. أسمع ؟

— محسوبك ...

— ... الحب ... هزأ بى ... انتقم لى ...

— آسف ! الحب زميل وليس لى عليه سلطان .

— ٥٩ —

— ما العمل إذن ؟ ...

— دع الانتقام ... وفكر في الدواء ...

— الدواء ... الثلج ... قطعة من الثلج ... إذن !!

— الثلج ليس بالدواء ... الدواء هو ...

— هو !! هو ماذا ؟ تكلم ؟

— هو الداء ... وداوها بالتى كانت هى الداء ...

— ماذا تعنى ... ؟

— اطلب من « الحب » كأساً أخرى ... !

— قل سما آخر ، ناراً أخرى سائلة فى كأس صافية ! ... لا ،

أيها النصاب لقد خدعت مرة ...

— ومن أدراك ؟ . ربما فى هذه المرة . ؟

— اخرس . يا منافق ... دوائى الثلج ... وأنا أدرى الناس

بدوائى ... أعطنى قطعة من الثلج ... أسرع بالثلج ...

— محال ..

— أنت أيضاً ..

— الثلج ليس فى عهدتى ..

— ٦٠ —

— كيف ذلك ... كيف ذلك ؟ ..

— سل صاحب الحان ! ..

— وما العمل ؟ ... ارحمنى ! ...

— أدلك على « جرسون » آخر ... وأوصيه بك خيراً ...

فلطالما أوصيته عند اللزوم بزبائننا الكرام ...

وجرى « الشيطان » مهرولا إلى « الموت » وأسر إليه

كلاماً ، ثم أشار إليّ أنا « الزبون » فتقدم « الموت » في بطاء وهو
يتسسم ساخراً :

— من ذا الذى طلبنى . ؟

— الموت !! ... آه ... لا ، لا ، لا ... لا ... أبداً ...

— عجباً لكم ... يا معشر الزبائن ... كلكم متشابهون ...

تطلبون ثم تنكرون ! ألم تطلبنى أيها « الزبون » ؟؟ ها ... ها ...
... ها ...

— لا تسعل فى وجهى ... اغرب عنى ...

— عجباً لك ! ... ها ... ها ... سعالى يخيفك ... أتخسبنى

مسلولا ... لا ... أخطأت ! هذا من الأفيون نعم .. ها .. ها ...

— ٦١ —

حا ... ألا تحب، تحاطى الأفيون ؟

— بالله ... ابتعد ... أسنانك الصفراء ... ابتعد ... ابتعد ...

— والثلج .. ألا تطلب الثلج ... هو فى عهدتى ألا تريد ؟؟ ..

— فى عهدتك ؟؟ ...

— فى عهدتى دائما من يوم (نزولى الخدمة) ، بهذه

الحانة ...

— كلا لا تقربنى ... قلت لك ... لا تقربنى ... أستودعك

الله . !

— إلى أين ؟! حا ..

— ابتعد عنى ... أنت لا تطاق ... رائحتك كريهة ...

— والثلج ... حا ... حا ... ألا تطلب ثلجا ... أبيض ...

تعال لا تخف ... تعال .. ثلجا أبيض مثل الكفن !!

— النجدة ... النجدة ... يا جرسون « حب » ، يا جرسون

« شيطان » ... يا صاحب الحان ... أنقذونى من هذا الجرسون

الفضيع ... كل شىء يطاق إلا هذا الجرسون البارد الفضيع ...

حقوقی علی نفسی

فى ذات صباح دخل على حارس باى وقدم إلى خطابا قال إن صاحبه ينتظر الإذن « بالمثل » . وفضضت الغلاف وقرأت الخطاب فإذا هو معجب متحمس قد ذهب الإعجاب برأسه فجاء من بلده وتحمل نفقات السفر كى يظفر بخمس دقائق يزى فيها ذلك التمثال من الحكمة فوق عرش من الذهب . وأوذلك المخلوق العجيب الذى تتساقط من فمه درر الفن والأدب ، فتملا أحواضا حوله يسبح فيها بط وأوز من الفضة والماس وتنبث فيها أزهار من النور والبلور . إلى آخر هذا الخيال الذى لمحت أثره بين السطور . وكان عندى وقتئذ أديب معروف اطلع على الخطاب وقال : هذا يذكرنى بأحد الموسيقيين فى القرن الماضى . مشى من بلده على قدميه ليرى « ريتشارد فاغنر » فلما بلغ حيث يقيم اكتفى بمشاهدة خيال الأستاذ قائما خلف زجاج نافذته ، وقفل إلى بلده (عهد الشيطان)

غائما باسمها .

فقلت لصديقي :

— لا محل هنا للمقارنة . فأنا لست « ريتشارد فاجز »
وصاحب الخطاب لن يقنع منى فيما يظهر بشبح مار خلف نافذة .
لا تنس أنه دفع نفقات السفر ليرى مناظر قد صورها خياله منذ
أيام وشهور ، وليعيش تلك الدقائق الخمس في جو عبق بأحلام
وأوهام ساورته في ليال طوال وهو يقرأ ذلك « الهراء » الذى ملأنا
به كتبنا ذات ورق صقيل وطبع أنيق . أى خيبة أمل ستصدم نفس
هذا المسكين إذ يجتاز الساعة عتبة هذا الباب .

وترددت قليلا . ولحظ صاحبي ترددى فقال :

— إيذن له على كل حال .

فأذنت . وليس في مقدورى أن أفعل غير ذلك . فإن رفض .
المقابلة في مثل هذه الحال قسوة وسوء أدب . ودخل الزائر . فإذا
شاب يتقدم في حياء واضطراب . سلم في احترام ، وجلس حيث
أشرت إليه . ولبت صامتا مطرقا ينتظر منى أن أبدأ الحديث . ولم
أجد أنا ما أقول له . وطال صمتنا . ورأى صديقي الأديب أن

— ٦٧ —

الموقف قد فتر ويرد إلى حد أخجل الشاب فوق خجله . فافتح
الكلام في لباقة قائلا للشاب :

— أنت قرأت للأستاذ طبعاً ..

فاندفع الشاب يقول في قوة وتحمس :

— كل شيء . كل شيء من « أهل الكهف » الخالدة إلى آخر

مقال ظهر في الصحف للأستاذ .

فلم أنظر إلى الزائر والتفت إلى صديقي الأديب وقلت :

— ألم تدركها الوفاة بعد « أهل الكهف الخالدة » ؟ ... إن

هذه « الخالدة » جديرة أن تموت « حرقاً » كما تموت الساحرات

الكاذبات .

فاحمر وجه الشاب وأراد أن يقول شيئاً . لكنني مضيت في

كلامي :

— إنني أرجو من يسبغ مثل هذه الصفات على مثل هذه القصة

أن يقرأها بعد عشرة أعوام . فإن استطاعت أن تحتفظ بسحرها

عشرة أعوام فقط حق لك أن تعجب وأن تغبط .

فلم يطق الشاب صبراً وصاح بي :

— لا تقل ذلك ... لا تقل ذلك أنت ولا شك لم تقرأ ..
و لم يتم . فقد قاطعه صاحبي الأديب بقهقهة عالية وهو ينظر
إلى :
— أسمعت ؟ إنك لم تقرأها ... وإنك لتحكم على شيء ليس
لك به علم ..

وخجل الفتى الزائر قليلا وتتم باعتذار خافت وقال :
— إني قرأتها كثيراً . لا أذكر كم من المرات . فإذا لم تكن هذه
القصة خالدة فما هي القصة الخالدة ؟
— إنها « خالدة » إذا هبطنا بسعر « الخلود » إلى خمسة
أعوام !

فاحتج الشاب وحرك يده على نحو عنيف فلم ألتفت إليه
واتجهت شطر صديقي الأديب وقلت :
— إني لن أنسى يوم شاهدت هذه « القصة » تمثل للمرة الأولى .
لقد خرجت من إطارها الساحر . هذا الطبع الأنيق والورق
الفاخر . فإذا هي شيء هزيل . لا يكاد يقف على قدميه . وإذا
سحرها الوهمي الكاذب قد طار عنها كما يطير الريش الملون عن

— ٦٩ —

الطاووس الجميل فلا يبقى منه غير شبه جيفة من اللحم الأزرق
والعصب الضئيل . هذه القصة التي لم تثبت « للتمثيل » أتستطيع
أن تثبت « للزمن » ؟ .

فتململ الشاب ونظر إلى صاحبي الأديب نظرة المستنجد
وقال له :

— إني لم آت اليوم لأسمع هذا الكلام من الأستاذ .

فأجابه صاحبي باسمياً :

— إن الأستاذ أدرى بعمله منا .

فقاطعه الفتى قائلاً :

— لا ... لا ... أبداً .

فنظر إليه صديقي دهشاً :

— ماذا تعنى ؟

فصاح الشاب فى حماسة :

— إن أعمال الأستاذ خالدة جميعاً .

فلم أستطع كتمان ضحكى وقلت من فورى :

— أقسم أن الأستاذ الذى تتحدثون عنه لم يكتب سطرأ

— ٧٠ —

خالدًا .

فنهض الشاب على قدميه منفعلًا وقال بصوت متهدج :

— إني لا أسمح لك .. إني لا أسمح ..

فأسرع صاحبي الأديب وهمس في أذني :

— الزم الصمت . إني ألح الشر في عينيه . وليس بمستبعد أن

يهجم عليك ويشبعك ضربًا .

فابتسمت وقلت للشاب في هدوء ورفق :

— سنتفق على كل حال ذات يوم . وربما في يوم قريب .

وسترى بعينيك أني أنا الذي كنت على حق .

فهدأ الفتى قليلاً ثم نظر إليّ وقال في نبرة الأسف :

— لماذا تريد أن تهدم عملك ؟

— لأنه لا يساوى الآن شيئاً . لقد قام بمهمته وانتهى الأمر . إن

الفن طويل والعمر قصير . وإن هذا الهراء الذي نكتبه ليس إلا

محطات صغيرة نجتازها أثناء السفر في طريق الفن ، لا ينبغي أن

نقف عندها ولا أن نرجع البصر إليها . إن ما يهمني الآن هو المحطة

التي بلغتها اليوم والمحطة التي أريد أن أبلغها غداً . إني في كل محطة

يخيل إلى أنى فى مبدأ الطريق .

— إنه لتواضع .

— لا . إنه ليس كذلك . ينبغي أن تكون معى فى هذا السفر الطويل حتى تدرك أن « أهل الكهف » شىء قد مات ودفن منذ أعوام .

— إنها لم تمت .

— الكلام معك أيها الشاب لا فائدة منه .

— معذرة يا أستاذ . إني لن أصدق أن « پريسكا » ميتة الآن . مهما تقل ومهما تفعل . إني أسمع كلامها وأعيش معها . وأكاد أراها الآن . إن ملاحظها وتقاطيع وجهها وقوامها الرشيق وخصرها النحيل ... كل هذا حى فى رأسى وقلبى . كل هذا مصور فى مخيلتى تصويراً لا تمحوه كلماتك التى قلتها اليوم ولا أضعافها . إني كنت قد جئت لأحدثك حديثاً طويلاً عن « پريسكا » وأستزيد من خبرها ولكن ... أرجو أن تأذن لى الآن فى الانصراف .
ومد لى يده فجأة وودعنى فى صمت وذهب سريعاً وأنا أنظر

— ٧٢ —

إليه حتى اختفى وحال بينى وبينه الباب . وأطرقت لحظة ثم رفعت رأسى ونظرت إلى صاحبى الأديب فإذا هو كذلك مطرق مفكر . وأخيراً التفت إلى وقال :

— ما كان ينبغى لك أن تقول كل هذا الكلام لهذا الشاب المسكين .

— أو كان ينبغى لى أن أتركه فى وهمه مخدوعاً فى خلود كاذب .
— ليس من حقتك أن تصدر على نفسك أحكاماً أمام الناس .
إنك ما دمت قد استطعت أن تخلق للناس أوهاماً جميلة وأحلاماً حلوة يعيشون فى جوها فإن من الإثم أن تخرجهم منها بكلمة . ومع ذلك فكن على ثقة أنهم لن يصدقوا كلامك وإن حرصهم على هذه الأوهام التى ألفوها لأشد من حرصهم عليك أنت وعلى حقيقتك التى تزعمها . أترى لو بعث نبي من الأنبياء اليوم وجاء يهدم دينه الذى أتى به قديماً ، ماذا يكون شأنه . أيصدقه الناس بسهولة أم تراهم يرمونه بالحجارة ويرمونه بالكذب والجنون ؟؟ إن تمسك الناس بالوهم الذى اعتادوه لأقوى من كل حقيقة .

— ٧٣ —

— يا للعجب . أليس لى الحق إذن أن أهدم نفسى . إنه الجنون
أن أتصور أن ليس فى استطاعتى أن أهدم نفسى .
— نعم وإنها لنعمة حررها المؤلف فيما حرم من أشياء . إن
حقوقه على نفسه ليست محفوظة له كحقوق الطبع والتأليف !

مع الأميرة الغضبي !

الأميرة الغضبي هي « يريسكا » بطلة قصتي « أهل الكهف » . وهي مثلي تحب الكتب ، هذه الحسناء المنصورة كالزهرة . وكانت تعيش ربيعها الياسم مع مؤديها « غالياس » ، هذا الشيخ الفاني ذو اللحية البيضاء . إلى أن وضع القدر أمامها : الفتى الجميل « مشلينا » . فما كاد يتفتح قلب هذه الزهرة للحب ، حتى رأت « القدر » قد حال بينها وبين حبيبها ، وسطر في اللوح أمر موته . وقدر « يريسكا » هو « أنا » . ولا فخر . أنا الذي في يدي سعادتها وشقاؤها ، أسطرهما بكلمة من قلبي ! لقد تذكرت هذا ، ذات ليلة ، فحدثتني نفسي أن أهبط إلى عالم مخلوقاتي ، فأرى الراضى منهم والساخط ، وأطوف بمشاعرهم نحوى ونحو الأشياء كما كان يفعل آلهة الأساطير !

ذهبت إلى الأميرة يريسكا . فوجدتها تتألق في حسنها

— ٧٨ —

المعهود ولو لكنه حسن عليه غيمة حزن : فما إن رأتني وعرفتني ،
حتى هبت إلى مصاتيحة :

— إنى أبغضك ! .. من أعلقاق قلبي .

— أستغفر الله ! لماذا يا سيدتى ؟ ما جنايتى !

— وأحتقرك كما أحتقر غالياس .

— لا تفخظي يا سيدتى قبل كل شيء أن ليست لى لحية غالياس !

— قل لى أنت قبل كل شيء : ماذا عليك لو انك أبقيت لى

مشلينيا ؟ .. لو أن قلعك تمهل لحظة صغيرة ولم يقصف تلك

الحياة قبل أن يحضر غالياس وعاء اللبن ... ! ماذا كسبت أنت من

موت مشلينيا قبل الأوان ؟ لحظة واحدة صغيرة كانت كافية

لإنقاذ اللهتى ... لكنك ضننت بها أيها القاسى الظلوم ! .

— لست قاسياً يا سيدتى ولا ظلوماً . ولو كنت أملك أمر بقاء

مشلينيا دقيقة واحدة لأبقيته لك عن طيب خاطر .

— لو كنت تملك ؟ ومن غيرك يملك ؟ !

— لا تحملينى يا سيدتى هذه التبعة !

— جميل أن يتنصل خالق من تبعة خلقه كل هذا لبتنصل !!

— ٧٩ —

— آه ! . ما أظلم الإنسان ! وما أحوج الخالقين إلى الرحمة
والرثاء في هذا الوجود !

— نحن الظالمون وهم المظلومون ! شيء بديع !
— إنكم تحملونهم التبعات وترمونهم بالظلم وهم براء من كل
صفة من هذه الصفات . فلا ظلم ولا عدل ، ولا قسوة ولا
حنان ، ولا غضب ولا رضى ، تلك عواطف لا يعرفونها ولا
يشعرون بها . ولو أصغى إله لصوت آدمى لانحل الكون في طرفة
عين . كما تنحل قصة أهل الكهف لو أنى أصغيت إلى شخص واحد
من أشخاصها ! فأنت تريد أن أؤخر موت مشلينيا دقيقة . ولا
تعلمين أن هذه الدقيقة الواحدة كانت كفيلة أن تغير وجه القصة
وتقلب مصير الأشخاص وتلقى عناصر الفوضى في العمل كله .
كلا يا سيدتى . إنى لم أرد موت مشلينيا ولم أرد بقاءه . ولم أحب
ولم أكره . ولم أظلم ولم أعدل . إن الخالق بلا يمكن أن يخضع لغير
قانون واحد : « التناسق » .

— هذا كلام تبرر به قسوتك .

— أنت يا سيدتى بلا تعزفين ما مهنة الخالق ! ثقتى أن كلمة

— ٨٠ —

« قسوة » لا معنى لها في تلك المهنة .

— أنت كائن لا يمكن أن يفهمنى ولا يمكن أن يفهم الحب .

— لا أفهمك ، هذا صحيح . أما أنى لا أفهم الحب فهذا غير

صحيح .

— هل أنت تفهم الحب ؟

— قليلا .

— هل أحبيت في حياتك ... ؟

— أيتها الاميرة ! لا أسمح لك بالكلام في شئنى الخاصة .

— معذرة ! إنما أردت أن أعرف كيف فهمك للحب ؟

— ماذا تريد أن تعرفى ؟ أحب الخالق وهو روح التناسق ؟

أم حب المخلوق ... ؟

— بل حب المخلوق ... حب القلب ... الحب ما أريد . آه ...

صدقت ما دمت أنت خالقا وأنا مخلوقتك فإن بيننا تلك الهوة ...

فأنت لا تنظر إلئى بعين خاصة . ولا تعرفنى معرفة خاصة . ولا

تتصل بى اتصالا مباشراً . إنما تنظر إلئى كعنصر من عناصر الكل

المتسق . تنظر إلئى بعين ذلك القانون الذى تحكى عنه ، وينبغى أن

— ٨١ —

تكون مخلوقاً مثلى وعنصراً أو جزءاً مثلى حتى يكون بيننا ذلك
الارتباط الخاص وذلك الالتفات الخاص . فهبك كذلك وهبنى
أحييتك فهل تحبنى ؟

— يالك من ذكية ماهرة !

— أجب . إذا أحييتك ... !

— ومشيلينيا ؟

— دعنا الآن من مشيلينيا .

— إذا أحببتنى . ؟ أنا ؟

— نعم ، أنت .

— إني أخشى هذا الحب .

— لماذا ؟

— لأنك لن تحبينى .

— من أين لك العلم ؟

— هل رأيتنى ؟ إني لا أشبه مشيلينيا فى شيء ، فليست لى فتوته

ولا جماله ولا قوامه ولا ذراعه ولا شفتاه ...

— ولا قلبه ؟

(عهد الشيطان)

— ٨٢ —

— أتردد قبل أن أجيب ؛ قد يكون لى قلبه ، لكن ثقى أنى لو
شقيت فى الحب فإنى لا أذهب إلى الكهف ولا أموت جوعاً . أولاً
... ليس عندى كهف أموت فيه . وإن وجدنا الكهف ، فلسنا
واجدين الشجاعة والصبر عن أكل الشواء والدجاج يوماً
واحداً...

— إذن ليس لك حتى قلبه !

— نعم وأسفاه !

— إذن ما يصنع مثلك لو شقى فى الحب ؟

— يذهب إلى كهف من كهوف النبيذ فى مونغارتر ويؤلف
قصصاً تمثيلية .

— مرحى ! . مرحى ... !

— لا تغضبى ايتها العزيزة يريسكا .

— أهذا فهمك للحب ؟

— ماذا تريدین ؟ إنا لسنا قديسين !

— نعم ، لستم سوى خالقين ! آه ... كنت أحسبكم خيراً من

هذا !

— ٨٣ —

— كذلك قال غالياس يوماً فيما أذكر عن القديسين الثلاثة إذ خالطهم وحادثهم . ألا تذكرون ؟

— كنت أظنك على الأقل خيراً من غالياس المسكين فهما للحب !!

— يشق على أن يخيب ظنك في يا عزيزتي !

— عزيزتك ! كلا . لست أسمع لك ! إنك تخاطبني كما لو

كنت تعرفني من قبل ، أو كما لو كنت لي بعلا !!

— حقيقة أيتها الأميرة ليس لي هذا الشرف !

— تستطيع أن تنصرف يا هذا !

— أنصرف إلى أين أيتها الأميرة ... ؟

— أتسألني ؟ إلى حيث كنت ... إلى سمائك ...

— أين هي هذه السماء ؟ في قهوة « سيرانو » ؟ أو في قهوة

« جروني » ؟ ما أكثر أوهامكم أيتها المخلوقات !

— نعم ما أكثر أوهامنا ... وتخيلاتنا .. وخيبة آمالنا !

— ذلك أنكم تريدون أن تخضعوا كل شيء لخيالكم أنتم .

— صدقت ! إننا نتمثل القديسين والآلهة كما تصورهم لنا عقولنا

— ٨٤ —

— ثقي أن لو كشف المجهول يوماً لأعين البشر لصاحوا كلهم
بكلمتك التي لفظتها الساعة : « كنا نحسبه خيراً من هذا ... ! »

— ربما ...

— ذلك أنهم سيرون المجهول شيئاً لا علاقة له بعقلهم ، ولا
بخيالهم ، ولا بمنطقهم ، ولا بعواطفهم ، ولا ببشريتهم .

— إنا مخلوقات . ماذا تريد من مخلوقات ؟ إنا لا نستطيع أن نخرج
من أنفسنا لنفهم ونرى شيئاً غير أنفسنا .

— ومع ذلك فإن لهذه المخلوقات كنزاً لا يوجد عند الآلهة .
— القلب

— نعم .

— إني أؤمن بما تقول ، فهذا أنت ذا خالق من نوع تافه ... وليس
لك القلب الذي لمشلينيا ... !

— أعترف أنني أقل شأنًا من حبيبك .

— ومع ذلك فقد اجترأت يدك على إطفاء حياته الجميلة .
— عدنا إلى الاتهام .

— إني أبغضك .. أمقتك ... أبغضك من أعماق قلبي ...

— سبحان الله ! أقسم أن لا فائدة من مناقشة امرأة تحب .

أمام حوض المرمر !

في ليلة من ليالى وحدتى الطويلة ، تاقت نفسى إلى أنيس .
فذكرت الملكة « شهرزاد » . وهى أيضاً من مخلوقاتى الجميلات .
فقلت : لا يؤنسنى الليلة غيرها . فهبطت إلى قصرها . كما هبطت
إلى الأميرة « پريسكا » من قبل . نعم .. ! وهل يؤنس مثلى إلا
الملكات والأميرات ! إن عالمى الزاخر بالآلىء والحلى والتيجان هو
دائماً فى خدمتى ! هذا كل عزاء مثلى من « الخالقين » المتدثرين فى
سحب « عزلتهم » الباردة !

ذهبت إلى شهرزاد ، فوجدتها متكئة على الوسائد تنظر باسمه
فى حوض من المرمر ، قد انعكست أشعة عينها الذهبيتين على
مائه ، فاتخذت صفحته الهادئة لوناً غريباً ... وجلس بين يديها
الوزير الجميل « قمر » فى إطراره وحيائه ونفسه الزاخرة بألوان
العواطف الجميلة المكتومة . وكان بينهما هذا الحديث :

— ٨٨ —

شهرزاد : (في مكر) أراك يا قمر تسرف في إطرائي وتبخس قدر
صديقك شهريار .

الوزير : لم أبخس قدره .

شهرزاد : (في مكر) يخيل إليّ أنك نسيت ما بينكما من ود
عجيب .

الوزير : (في حدة) لم أنس شيئاً .

شهرزاد : (في خبث) بلى !

الوزير : (في حدة عمياء) إني لم أنس شيئاً . إنما أئين لك لماذا
أنت تحببته أسمى الحب ، فلا تزعمي لي غير هذا مرة
أخرى . إني لست أخدع . لست أخدع . لست
أخدع !

شهرزاد : (هادئة) قمر ؟ ماذا دهاك ؟

الوزير : (يثوب إلى رشده) مولاتي مغفرة . إني

شهرزاد : إنك أحياناً لاتملك نفسك .

الوزير : إني ... أردت أن أقول إنك غير ته ، وإنه انقلب إنساناً
جديداً منذ عرفك .

— ٨٩ —

- شهرزاد : إنه لم يعرفنى .
- (وهنا يسمعان طرقا شديداً فقد طرقت أنا
عليهما الباب)
- الوزير : (يرهف السمع) هذا هو .
- شهرزاد : إن شهریار يحمل دائماً مفتاحه ولا يدخل القصر
إلا من سردابه .
- الوزير : من الطارق إذن ؟
- شهرزاد : اذهب وجئنى بالخبر .
- (الوزير يخرج مسرعاً)
- شهرزاد : (كالخطابة لنفسها) مسكين أنت يا قمر !
- (الوزير يعود على عجل)
- قمر : مولاتى ! أتدرين من الطارق ؟ رجل عجيب
الزى ، يقول إنه المؤلف ، وياتمس الثول بين
يديك .
- شهرزاد : (فى عجب) المؤلف ؟ أى مؤلف !
- قمر : لم أفهم مراده . إنما هذا ما قاله لى .

— ٩٠ —

شهرزاد : أدخله لتبين أمره .

قمر : أفى مثل هذه الساعة من الليل ؟ .

شهرزاد : وماذا يضير . إنك معى .

قمر : نعم سألبث معك .

(يخرج قمر فى الحال)

شهرزاد : (كالتخاطبة لنفسها) المؤلف ؟ : أتراه أحد

السحرة قد أرسل فى طلبه شهریار ؟

* * *

وقادنى قمر إلى شهرزاد ، فدخلت أتأمل المكان وأنظر إلى
عجائب القصر . ورأتنى شهرزاد وتأملت زى قليلا ، ولكن
حسنها وهيتها لهما عين السحر فى نفوس الخالقين والمخلوقين
فوقفت أقول مأخوذاً :

— مولاتى ...

— ماذا بك ؟.

— أنا بين يدى شهرزاد ؟.

فهمس فى أذنى الوزير الجميل :

— ٩١ —

— نعم أنت في حضرة الملكة العظيمة .

فقلت كالمخاطب لنفسى :

— نعم ، لا يمكن لهذا الجمال أن يكون لغيرها .

ورأت الملكة الجميلة ما بى فقالت لى :

— بم تهمس كمن به مس ؟ .

— مغفرة أيتها الملكة ، إنى ...

— لماذا تنظر إلى هكذا ؟ .

— هذا الجمال ...

فالتفتت شهرزاد إلى وزيرها قائلة :

— أ رأيت يا قمر ، إنك قد جئتنى آخر الليل بمعجب مفتون .

فنظر إلئى قمر قائلا فى شئء من الحدة :

— ماذا جئت تصنع هنا أيها الرجل ؟

فقلت همساً :

— لست أدرى ...

ثم عدت إلى تأمل شهرزاد . فقالت :

— أرجو منك أن لا تطيل النظر إلئى هكذا .

— ٩٢ —

فقلت :

— مولاتي ! لا أستطيع .

فقلت وهي تبحث بعينها الفاتنتين :

— أين الجلاد ؟

فقلت :

— نعم ، خير لك أن تأمرى بي فتطاح رأسى من أن تطلبى إليّ

أن لا أعجب بك .

— أترانى حقاً جميلة ؟

— نعم .

— إن لى جسداً جميلاً ! أليس لى جسد جميل ؟

— ليس الجسد وحده .

— اقترب .

— كلا .

— لماذا ؟

فأشرت إلى حوض المرمر :

— هذا الحوض ..

— ٩٣ —

- أَيْخِيْلَكَ ، هَذَا الْحَوْضُ ؟
- أَخْشَى أَنْ تَزِلَ قَدَمِي فَأَسْقُطَ وَأَنَا لَا أَحْسِنُ السَّبَاحَةَ .
- إِنَّهُ قَلِيلُ الْغُورِ .
- لَا شَيْءَ عِنْدَكَ قَلِيلُ الْغُورِ .
- فتفرست شهرزاد في وجهي وقالت :
- عَجَباً ! إِنَّكَ تَتَكَلَّمُ كَمَا يَتَكَلَّمُ شَهْرِيَار ! مِنْ أَنْتَ ؟
- خَادِمُكَ تَوْفِيقُ الْحَكِيمِ .
- أَتَعْنِي أَنْتَ صَاحِبُ تَوْفِيقٍ أَمْ أَنْتَ صَاحِبُ حِكْمَةٍ ؟ .
- لَا هَذَا وَلَا ذَاكَ ، وَلَكِنَّهُ اسْمُ مِنَ الْأَسْمَاءِ .
- وَمَا صَنَاعَتُكَ ؟ .
- أَوَّلُفَ الْقِصَصِ .
- مِثْلِي ؟
- لَمْ أَبْلُغْ شَأْوَكَ ، وَلَيْسَ لِي ذِكَاؤُكَ وَلَا خِيَالُكَ .
- إِنَّكَ تَسْرِفُ فِي إِطْرَائِي وَتَبْخُسُ قَدْرَ نَفْسِكَ .
- قَدْرَ نَفْسِي ؟ وَمَا أَدْرَاكَ بِهِ ؟ وَهَلْ عَرَفْتَ لِي قِصَصاً عَلَى الْأَقْلِ أَيُّهَا الْمَلِكَةُ ؟ .

— ٩٤ —

— كلا . ماذا صنعت أنت من القصص ؟ .

— قصة « شهرزاد » .

فظهر العجب على وجه الملكة :

— أنا ؟

— نعم أنت .

— متى صنعتها ؟

— ليس يعنى الزمن الذى صنعت فيه .

— أصنعتها فى الماضى ؟

— بل فى المستقبل .

— فهمت . هذا الزى العجيب ..

— نعم . إنى أهبط إليك الساعة من المستقبل الذى أعيش فيه

لألقاك فى الماضى الذى فيه الآن تعيشين ، كما يهبط الطائر من

الشمال إلى الجنوب فى غابة متسعة الأرجاء .

— يا للعجب ! كلامك هذا يذكرنى بشهریار .

— أترين هذا ؟

— لكنك أهدأ نفساً منه .

— ٩٥ —

— نعم ، الآن .

ونظرت شهرزاد إلى ملياً :

— إني أعجب كيف أن القدر لم يجمع بيننا قبل الآن ؟

— لقد جمع بيننا دائماً .

— أين ؟ .

فأشرت إلى قلبي وقلت :

— هنا .

فقال في عجب وهي تشير إلى قلبي :

— هنا ؟

— نعم . ومن هنا خرجت أنت إلى الوجود فما أنت إلا صنع

النار والنور الكائنين هنا .

وأشرت مرة أخرى إلى قلبي . فقالت باسمه :

— هذا جميل .

— رأيت من أى مادة أنت مصنوعة يا مخلوقتي العزيزة !

وتلملم قمر ، فقال مشيراً إلى في عنف :

— من هذا الرجل ؟

— ٩٦ —

فقلت في الحال :

— صه أيها الوزير . فكر في شأنك أنت ، ودعني فيما أنا فيه .

فما جئت الليلة إلا من أجل شهرزاد .

فقالت شهرزاد في ابتسامة عذبة :

— جئت من أجل ؟

— نعم .

— وماذا تريد مني ؟ .

— أريد أن أعيش إلى جانبك .

وهنا ثار غضب قمر فصاح بي :

— أيها الرجل ! من أنت أيها الرجل ؟

فقلت له هادئاً :

— أنا كائن أشقى منك حالا .

فقالت شهرزاد :

— لماذا ؟

— لأنني أشعر ببرد الوحدة يكتنفني في تلك السماء ذات

السحب .

— ٩٧ —

فقال باسمه :

— ويل للخالقين !

— صدقت ، أجل يا شهرزاد لو لم يعيش الخالق في مخلوقاته
لقتله برد الوحدة .

— تريد إذن أن تهبط إلى الأرض .

ـ لقد قلتها أنت مرة يا شهرزاد : لا شيء غير الأرض ؟

— أين شهریار يسمع منك ؟ وهو الذى هجر الأرض يريد

السماء ! .

— لا تخشى عليه من بأس . سوف يعود إليك .

— متى ؟

— يوم يعلم أن السماء فى الأرض .

— يا هذا ... أريد منك شيئاً ..

— ماذا ؟

— أمنحك قبلة . !

— تمنحينى قبلة ؟

— نعم .

(عهد الشيطان)

— ٩٨ —

— وهبتها قمراً .

فنظر قمر إلى شهرزاد مستنكراً قولى وصاح :

— مولاتى !

فقلت له :

— خذها أيها الأبله . من ذا الذى يرفض قبلة من شهرزاد ؟

فلم يحتمل قمر الرقيق أكثر من ذلك فخرج سريعاً .

فقلت :

— هرب الأحمق .

وعندئذ نظرت إلى شهرزاد ملياً وقالت :

— عرفتكَ أخيراً .

— عرفتني ؟ من أنا ؟

— أنت هو ؟ أم أنك تعيش فيه ؟

— من هو ؟

— شهريار !

فقلت مضطرباً :

— لست أدرى ... هذا سؤال لا ينبغي أن يوضع ولا ينبغي أن

— ٩٩ —

يلقى على .

فقلت :

— إذن ارتفع . فما أنت إلا شبح من الأشباح .

— شبح من !

— شبح شهريار . !

— لا تقولى هذا . إنما هو الشبح وأنا الحقيقة .

فقلت :

— أمام الأبد هو الحقيقة التى ستبقى وهو خالقك وهو
مخلدك ، وما أنت إلا خيال سوف تتبعه صاغراً على مر الأيام . وإن
ذكر اسمك على الدهر فإنما يذكر خلف اسمه . إنك تزعم الآن أنك
صانعنا وخالقنا أمام ذلك الزمن المحدود ، وإنما نحن فى الحقيقة
صانعوك وخالقوك فى الغد أمام الخلود ...

— ويل لى .

— ماذا بك ؟

— أنا عندك شبح ؟ تلك هى السخرية الكبرى ! فى وحدتى
ينخر فى نفسى الشك . فإذا هبطت بينكم أتمس اليقين ، علمت

— ١٠٠ —

أنى شبح لا حقيقة ، وأنى وليد صنعكم أنتم أمام الدهور .

فقلت :

— كل شيء يصنع كل شيء ..

— نعم .

— ليس هناك إلا حقيقة واحدة .

— ما هي ؟

— أننا جميعا لسنا حقيقة .

— وأنا معكم ؟

— وأنت معنا لا فرق بينك وبيننا .

فتأملت قولها لحظة ثم قلت :

— صدقت ! ولا أمل لي مع ذلك فى أن أعيش إلى جانبك ؟؟

فقلت :

— اليوم كلا .

— ومتى إذن ؟

فقلت :

— ١٠١ —

— في الغد ، يوم تصبح من مادتنا ، لو أن لنا اليوم مادة .

فأطرقت قائلا :

— فهمت . وداعا يا شهرزاد .

— إلى الملتقى !

بين الحلم والحقيقة

« أحدهما شبح الآخر »

— ١٠٥ —

« هو » : صانع تماثيل ، قد جلس أمام تماثيل صنعه
لأميرة فرعونية .

« هي » : زوجته ، جميلة تشبه التماثيل .

هو : (يرنو إلى التماثيل)

نفريت ! ما أجملك ! عيناك في صمتهما العجيب تابوتان
لامعان ، يرقد في أحدهما الحب ، وفي الآخر ... الحب
هي : (لزوجها الفنان)

ألن تكف عن مخاطبة هذا التمثال الصخري ؟

هو :

نفريت ليست من الصخر .

هي :

إنك جننت .

— ١٠٦ —

هو :

إني أحب .

هى :

تحب تمثالا من الصخر ؟

هو :

إنها ليست من الصخر ، أللصخر حرارة وأنفاس ؟

هى :

تلك حرارتك وأنفاسك

هو :

نفريت !. ألمس جسمك الحار فيرتجف جسمى الملتهب .

هى :

إنما جسمك يلتهب من الحمى .

هو :

ما أجملك يا نفريت ! رأسك ذو الشعر الأسود شمس من
الأبنوس . رأسك اللامع كرة ساحر تبهر بصرى وتثقل رأسى .
إننى أشعر الآن بدوار .

— ١٠٧ —

هى :

لا تطل النظر إلى هذا الصخر اللامع .

(ترده عن التمثال)

هو :

دعيني يا امرأة !

هى :

كلا . لن أدعك هذه المرة . لقد ضقت ذرعاً بهذا التمثال ... لا
تحقق فيه ببصرك ... إنك تحلم ... أقسم أنك فى حلم .

هو :

دعيني يا امرأة !

هى :

اصغ إلى لحظة ، أتوسل إليك أن تصغى إلى .

هو :

نفريت . ما أجملك يا نفريت ! . صوتك الرقيق فراش
جميل الألوان يطير فى لطف ورقة من جوف زنبقة
حمراء !

— ١٠٨ —

هى :

وصوتى أنا ، ألا تسمعه ؟

هو :

نفريت !

هى :

إنما أنا التى تحبك ... ألا تسمع صوتى أنا ؟ ألم يعد رقيقاً
كأجنحة فراش جميل الألوان ، وشعرى ... ألم يعد شمساً من
الأبنوس . لم تنادى نفريت بما كنت تنادينى به من قبل ؟

هو :

نفريت ! لن يُصنع مثلك بغير أن تفنى عبقرية ألف إله . ولن
يخلق نظيرك إله دون أن يجن !

هى :

أيها المجنون ... لا سوى فى الوجود ؟ ... انظر إلى أنا ... لم
تنعت نفريت بما كنت تنعتنى به من صفات ؟

هو :

بى ظماً إليك يا نفريت !

— ١٠٩ —

هى :

وأنا ... أما بك ظمأ إلى ... لماذا لا تأخذ رأسى بين يديك كما
كنت تفعل ، لترشف من فمى عصير اللآلى ؟

هو :

قبلات نفريت .. غسل من نار ، بل خمر من عصير اللآلى فى
كأس من نار ...

هى :

ويحك ! تلك صفاتى ... أسمائى التى كنت تطلقها على أنا
وحدى ... أنا جمالك الوحيد ، أنا عندك منبع الحسن الخالد .

هو :

من أنت ؟

هى :

من أنا ؟ ألا تعرفنى ؟ إني أبغضك .

هو :

إنها لا تبغضنى ؟ إنها تحبنى ، إنها لا تحب « أسرتسن » ...
آه ... الغيرة .

— ١١٠ —

هى :

الغيرة ؟!

هو :

جعران مخيف يسير فوق شغاف قلب ..

هى : (تضحك)

أنا ؟ أغار من تمثال ؟ أغار من تمثال ؟ أنا أغار من جمال
كاذب !

هو :

أنا الذى يغار من زوجها « أسرتسن » . إنه إلى جانبها أبداً ...
فوق عرش واحد ... تحوطهما هالة من أنفاس الآلهة ... وتحفهما
العبيد بمراوح النخيل .

هى :

أنت فى حلم ... أقسم أنك فى حلم .

هو :

بل فى يقظة هنيئة ... إنها معى أبداً ، إنها ترنو إلى بعينين من
ذهب .

— ١١١ —

هى :

أيها النائم ... وعيناي أنا ... ألا تراهما ؟

هو :

من أنت ؟

هى :

انظر إلى عيني .

هو :

عيناك من نحاس .

هى :

إنك لم تبصرهما ، أنت لا تريد أن تبصرهما ، آه . لم صنع هذا

التمثال ؟

هو :

نفريت ... رأسك اللامع بين يدي كوكب أسود بين يدي

إله ، كوكب لا نهار له .

هى :

ورأسى أنا أيها المجنون . ألا تراه ؟

— ١١٢ —

هو :

من أنت ؟

هى :

انظر إلى شعرى الأسود اللامع .

هو :

رأسك ليل له نهار .

هى :

إني أمقتك مقتاً شديداً . وأبغضك أكثر مما تبغضنى ، وأمقت
من تحب ، وأبغض هذا التمثال .

هو :

نفريت ! أنت لى وحدى ، أنت كوكبى ، فلنسبح سويا فى
بحار الفضاء تاركين خلفنا أسرتسن ... ولنبحث عن جزيرة الهناء
الدائم ... تلك الجزيرة التى خلقتها الآلهة لأنفسها ثم فقدتها ...
هلمى بنا نبحث عنها معاً فربما كان حظنا أوفر من حظ الآلهة .

هى :

أقسم أنك فى حلم ، لكنى سأوقظك ...

— ١١٣ —

هو :

نفريت .. جزيرة الهناء الدائم ليست فى محيطات الفضاء كما
ترعم الآلهة ... عبثاً تبحث عنها الآلهة فى محيطات الأثير .. جزيرة
الهناء الدائم المفقودة لا يعرف مقرها غيرى ... ميلى بأذنك نحوى
كى أهمس لك بمكانها . أتدريين أين جزيرة الهناء الدائم ؟ هى ليست
فى محيطات الفضاء ، هى فى محيط ... عينيك ..

هى :

محيط عينيا ... سأجعلك تفيق من تأثير عينيا . انظر ؟ ماذا
ترى بيدي ؟

(تأتى بمطرقة من الحديد)

هو :

لا تقرى نفريت .

هى : (تحطم رأس التمثال)

انظر هذا الكوكب الأسود تمحوه المطرقة !

هو :

آه ..

(عهد الشيطان)

— ١١٤ —

هى :

وهذا الجسد الجميل الحار يتفتت قطعاً باردة تحت ضربات
المطرقة ...

هو :

آه ..

هى :

والآن .. انهض واجمع أجزاء نفريت الخالدة !!

هو : (يفيق)

أين أنا ؟ ... أحس دواراً ، أين الرأس اللامع ؟ ...

هى :

هاهى ذى تحت قدمى نفريت ورأسها اللامع ... وعيناها
اللامعتان اللتان أنامتاك طويلاً ... الآن أنت لى وحدى .

هو :

أين أنا وأين كنت ؟

هى :

لست أدري أين كنت ! . إنما أنت الآن هنا معى وقد عدت

— ١١٥ —

إلى ...

هو : (ينظر إليها مليا)

أيتها العزيزة ، أنا هنا معك ! اجلسي إلى جانبي .

هي :

لماذا تطيل إلى النظر هكذا ؟!

هو :

كأن رأسك شمس سوداء ...

هي :

بل ليل له نهار ..

هو :

كوكب من الأبنوس ... وعيناك ، كأن عينيك من ذهب ..

هي :

عيناى من نحاس ..

هو :

عيناك بحيرتان صافيتان يسبح في إحداهما الحب وفي الأخرى

... الحب !

— ١١٦ —

هى :

ألى هذا القول أم لنفريت ؟

هو :

من نفريت ؟

هى :

ألا تعرفها ؟

هو :

لا أعرف سواك يا عزيزتى فى الوجود . ما أجملك ! كم أود لو
أتناول رأسك الأبنوسى بين يدى وأرشف من فمك رحيقاً فى لون
الورد . بل خمرأ من عصير اللآلىء فى كأس من ورد .

هى :

أرجو منك ألا تخاطبنى بما كنت تخاطب به نفريت ..

هو :

من نفريت ؟

هى :

ألم ترها ؟

— ١١٧ —

هو :

كلا ... لم أر غيرك . إني أريد أن أبحث في محيط عينيك عن
الهناء الدائم .

هى :

دعنى ! إنك ترى فى الآن ما كنت ترى فى الأخرى .

هو :

من هى الأخرى ! ليس فى الحياة غيرك أنت ، لأن الطبيعة لن
تخلق سواك . وأى إله يصنع مثيلك دون أن يتهم بالتزييف !

هى :

آه ! هذا ما قلته لها أيضاً ! ...

هو :

لمن ؟

هى :

أترى ...

هو :

ماذا ؟

— ۱۱۸ —

ہی :

تری اُکنت انا ہی ؟ اُم شَبِحا ؟

ہو :

من ہی ؟

ہی :

اُشربت شیئاً ؟

ہو :

کلا .

ہی :

اُتذکر اُسْطُورۃ « السکیر وزوجتہ ؟ » لقد کان یسرق حلی
زوجتہ کی یسبغہ علی خلیلتہ ، ثم یسرق حلی خلیلتہ کی یخلعہ
علی زوجتہ .

ہو :

ومن خلیلتہ ؟

ہی :

زوجتہ .

عدو إبليس

(« عزرائيل » وقد انصرف عن دار النبي « محمد »
بعد وفاته يرى « إبليس » مقبلاً فرحاً مبتهجاً ...)

إبليس : هل قبضت روحه ؟

عزرائيل : وما شأنك وهذا ، أخزأك الله ؟

إبليس : نعم ، نعم ، لقد مات . أليس هذا صوت ابنته فاطمة

تبكي وتصيح : « أبتاه ، أبتاه . أجاوب رباً دعاه ، يا

أبتاه ! جنة الفردوس مأواه ! يا أبتاه إلى جبريل

ننعاه ! »

عزرائيل : وما يعينك من هذا الأمر ؟

إبليس : أوليس هذا أيضاً صوت زوجته عائشة في بكاء وشهيق

: « واحر قلباه ! وامصيبناه ! الآن قد انقطع عنا خبر

السماء ! »

— ١٢٢ —

عزرائيل : اغرب عن هذا المكان !

إبليس : ثم ها هو ذا صوت نسائه كلهن ييكن : « واثكلاه !
واثكلاه ! »

عزرائيل : اغرب عن هذا المكان !

إبليس : ما أجمل هذا النهار ... إن نفسى لتكاد تتفجر شعراً
وغناء . أصغ إلى هذه الأغنية :

ذهب عدوى إلى الفناء

اليوم عيذى فى الغنىاء

عزرائيل : صه قبحك الله وقبح صوتك !

إبليس : صوتى منذ اليوم يستطيع أن ينطلق حراً فى أرجاء

الأرض . صوتى منذ الآن يستطيع أن ينفذ إلى تلك

القلوب التى كانت تميل عنى لتتلقى أخبار السماء .

نعم الآن قد انقطع عن الأرض خبر السماء . لقد عاد

إلى ملك الأرض من جديد .. وافرحتاه ! وافرحتاه !

عزرائيل : خسئت ! إن نور السماء قد نفذ إلى قلوب الناس ،

فهيات بعد اليوم أن يُصغوا إلى صوتك !

— ١٢٣ —

إبليس : إنك لا تعرف الناس مثلما أعرفهم . إني أعرف كيف
أمر بأناملى مرأ رقيقاً على أوتار قلوبهم ، فيذهلون ،
وأغنى بصوتي هذا غناء شجياً فيطربون ... إنك لا
تعرف ما هى الأغاني التى أغنيهاهم . إني أغنيهم أغاني
الأرض لا أغاني السماء ! إن السماء تنير قلوبهم حقيقة
... ولكن لأجل قريب . لا تنس أنهم خلقوا من طين
الأرض . لا شيء يهز كيانهم غير أغاني الأرض !
عزرائيل : إنهم من الأرض ولكن أعينهم تتطلع إلى السماء .
إبليس : نعم ، عندما يشير لهم إليها النبي بأصبعه ، فإذا ولّى ...
عادت رؤوسهم تنخفض نحو الأرض . إنهم كالسنبله
التي لا يرفعها غير الأصبع ، فإذا تركت سقطت .
عزرائيل : (كالمخاطب لنفسه) عجباً ! ولماذا إذن رضى الله أن
يقبض نبيه ؟! إن الله حكمة ، أجل ، أجل . أنسيّت
أيها الخاسر أن النبي إنما يأتى للتبليغ ويمضى . إنه جاء
بالدين إنه يذهب ولكن الدين باق . الدين هو الأصبع
الدائمة التي لا تنفك تقيم المعوج . لا تفرح إذن كثيراً

— ١٢٤ —

بموت النبی . ما مات غير الجسد الزائل . أما المبادئ
والتعاليم فهي قائمة في وجه ربحك العاتية دائماً ... ما
الرسول في الحقيقة غير الرسالة ... والرسالة لا تموت .

إبليس : نعم ، نعم .

عزرائيل : ما بالك وجعت ! إن على وجهك الآن لغبرة تزيد
قبحاً على قبحه ...

إبليس : الرسالة والدين والتعاليم .. هذا صحيح ... ولكن ...
تلك أشياء لم تخفني قط ... فقد استطعت فيما مضى
أن أنزع عنها بعض قوتها ... إن المسيح قد بشر بالمثل
الأعلى وفتح قلوب الناس لنور السماء . وذهب وقد
ترك في الأرض قديسين وخلفاء ساروا على سنته في
نبذ متع الأرض والانقطاع مترهبين في الصوامع والبيع
والصحارى ورؤوس الجبال يتأملون وجه الله
وحده ، ناسين أو متناسين هذه الأرض التي من
عناصرها صنعت أجسامهم .. هنا تراءيت لهم ولمن
تبعهم في صور مختلفة تذكرهم بما نسوه وتناسوه ،

وخاطبت أجسامهم بالمنطق الذى تفهمه ، وحدثت عناصر تركيبهم باللغة التى تعرفها ... فإذا أكثر الناس يصغون إلّى فى أمور حياتهم ومعاشهم ولا يذكرون تلك التعاليم والمبادئ السماوية إلا يوم يجدون فى أوقاتهم فراغاً للتفكير فى السماء. إني ذكى . إني لم أurd قط فى حرنى ضد المسيح أن أقتلع المسيحية من النفوس ، ولكنى أظهرت فى لباقة ما فيها من علو شاهق لا يستطيع المخلوقون من تراب وطين أن يبلغوه ماداموا آدميين ... فليصغوا إذن إلى أغاني الجسد وأناشيد التراب والطين ... وليطلب العلو من كان عنده فضل من فراغ ينفقه بعيداً عن الأرض والحياة ... وبهذا أصبحت المسيحية الحق اليوم ترفاً روحياً لا يقتنيه غير خاصة الخاصة ، أولئك الذين لم أستطع أن أحاطب فيهم منطق الأجساد والعناصر ...

عزرائيل : لقد أدرك الله غرضك الأثيم فأرسل محمداً بدين لا ينكر منطق الأجساد والعناصر ... دين لا يعرف

الرهينة ولا إنكار قوانين الأرض ... دين لا يكره أن
يصغى أتباعه إلى أغاني السماء والأرض معاً ... ما
وسائل حربك إذن ضد محمد والإسلام ؟
إبليس : حقاً ... تلك هي المشكلة ! لهذا كان ذلك النبي ألد
عدو لي !

عزرائيل : إنه خاتم الأنبياء لأنه ضيق عليك الخناق ، وسد كل
ثغرة يمكن أن تنفذ منها سمومك ... فماذا أنت
صانع ؟ ..

إبليس : دعنى أفكر ...

عزرائيل : فكر طول الأبد ... فلن تظفر ...

إبليس : بل لقد فكرت وظفرت ... الأمر بسيط : يجب على أن

أطمس خصائص هذا الدين ... إلى خبرت الناس

لطول لصوق بهم وعشرتى لهم .. إن الناس يميلون

دائماً إلى التشبه والتشبيه .. هذه القروذ الناطقة ...

يصعب عليها التمييز والتفريق والنظر في فلسفة الأشياء .

غداً عندما يوارى محمد في التراب ... ويصبح ذكراً

— ١٢٧ —

وطيفاً كموسى والمسيح لن يفرق الناس بين محمد
وموسى والمسيح ، بل ربما قبل أن يواروه فى الحفرة ...
انظر ... أليس هذا عمر بن الخطاب أحد خلفائه ؟
أصغ إليه ...

عزرائيل : إياك أن توسوس له بشيء .
إبليس : أصغ إليه ..

(عمر بن الخطاب يقوم فى الناس صائحا)

عمر : لا أسمعن أحداً يقول : إن محمداً قد مات ؛ ولكنه
أرسل إليه كما أرسل إلى موسى ، فلبث عن قومه أربعين
ليلة . والله إنى لأرجو أن تقطع أيدى رجال وأرجلهم
يزعمون أنه مات !

عزرائيل : عجباً ! ما هذا الذى يقول ؟ !

إبليس : أرايت ؟ إنهم قد شبهوه بموسى ولما يهيلوا عليه التراب !

عزرائيل : كذبت ! إنما هى وسوسة منك !

إبليس : صه ! انظر ! هذا أيضاً رجل من بين الناس يريد أن
يقول شيئاً ..

— ١٢٨ —

(ينهض أحد الناس صائحا)

أحد الناس إن رسول الله قد رفع كما رفع عيسى وليرجعن !

عزرائيل : رباه ! ماذا أسمع !

إبليس : أ رأيت ؟ إنهم قد شبهوه كذلك بعيسى ولما يدرجوه في
الأثواب !

عزرائيل : لست أصدق ما أرى وما أسمع .

إبليس : لقد قلت لك إني أعرف منك بالبشر .

عزرائيل : اللهم نورك ! كيف خفى على هؤلاء أن دينهم لم يكن
تكريراً لما سبقه من أديان ! ... اللهم إنك منزّه عن
اللغو والتكرار !

إبليس : ما أبهج هذا النهار ؟ ألا تطربك أغنيتي :

ذهب عدوى إلى الفناء

اليوم عيـدى إلى الغناء

عزرائيل : آه ، لو استطعت أن أبطش بك ...

إبليس : اقبض روحى إن قدرت ...

عزرائيل : ليس لك روح يقبض .

إبليس : بل لي روح لا تستطيع قبضه يداك الصغيرتان !
 عزرائيل : يداى حقاً لا تستطيعان ؛ ولكن يدرضيع تستطيع ...
 إن روحك ليزهق في اليوم ألوف المرات ... إن روحك
 لينطفئ في قلب كل مؤمن ومؤمنة ومحسن ومحسنة
 وخير وخيرة ... إن روحك مارء من دخان يستطيع
 طفل بكلمة طيبة أن يحبسه في قمقم من نحاس !
 إبليس : ولكنى لا أموت ولا أذهب إلى الفناء ... لأنى سلطان
 الأرض وروح الأرض ... ولن أترك الأرض ما بقيت
 دودة تسعى فى الأرض .

عزرائيل : ابق ما شئت فى الأرض ولكنك لن تقوى على دحر
 أعدائك ..

إبليس : عجباً لك ! أو لم تر كيف أنى فى لحظة استطعت أن
 أغير معنى الدين الذى قضى محمد حياته كلها فى تجليته
 وإظهاره وتوضيحه ... ؟ ألم يذكر محمد قومه فى كل
 وقت أنه بشر يوحى إليه ... وأنه يحيا ويموت كبقية
 الناس ... وأن دينه هو دين الحياة ... الذى يحل للناس
 كل وسائل العيش الصالح على هذا الأرض ... وما دام
 دينه دين الحياة والفترة والمنطق البشرى ... فلا ينبغى

(عهد الشيطان)

— ١٣٠ —

أن يؤلفه الناس كما ألّفوا المسيح ، ولا أن ينكروا إمكان
موته كما فعلوا مع المسيح ... أليس هذا معنى دينه ؟
فكيف إذن بدل الناس الآن المعنى وانقلبوا يسيرون نحو
فكرة التآليه ؟ ..

عزرائيل : إنهم لم يغيروا شيئاً ... ولئن وقع في نفسك شيء من
كلام عمر بن الخطاب ، فهو ولا ريب قد قال ما قال
خوفاً من الردة !

إبليس : ولماذا يخشى ارتداد الناس عن الدين بموت محمد ...
إنهم إذن كانوا يعبدون محمداً !

عزرائيل : اللهم ألق نورك في صدور الناس !

إبليس : هيهات ! إن ما تسميه « وسوستى » قد استقر الساعة
في صدور الناس ..

عزرائيل : خست أيها الخاسر .. انظر .. انظر ..

إبليس : ماذا ؟ من هذا ؟

عزرائيل : هذا أبو بكر يقوم في الناس ... أصغ إليه ...
(أبو بكر ينهض في الناس صائحا)

— ١٣١ —

أبو بكر : أيها الناس .. أما بعد ، فمن كان منكم يعبد محمداً فإن
محمداً قد مات ... ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا

يموت !

عزرائيل : وافرحته ... أسمعت ؟

إبليس : ؟؟؟

عزرائيل : انظر أيضاً ... انظر ... هذا العباس يريد أن يقول
شيئاً ...

(العباس يقوم في الناس صائحا)

العباس : أيها الناس ... والله الذي لا إله إلا هو ، لقد ذاق رسول
الله الموت ، وإنه ليأسن كما يأسن البشر ... فادفنوا
صاحبكم ... إنه ما مات حتى ترك السبيل نهجاً
واضحاً ... أحل الحلال وحرم الحرام ... ونكح
وطلق وحارب وسالم ... وما كان راعي غنم يتبع بها
رؤوس الجبال بأنصب ولا أدأب من رسول الله
فيكم !

— ١٣٢ —

(عزرائيل يلتفت إلى إبليس صائحا صيحة

انتصار)

عزرائيل : ماذا تقول الآن في هذا ؟ اغرب الآن عن هذا المكان

... لقد ظهر الإسلام ، وتألق روح هذا الدين ... !

فوق السحب

— ١٣٥ —

حضر إلى ذات صباح مندوب إحدى الصحف ، وأخبرني أن
مكاني محجوز في الطائرة الذاهبة إلى الإسكندرية في اليوم الذي
أختاره والساعة التي أحددتها فترددت ... ولكنه أسرع يقول لي :
— إن سفر الأستاذ بالطيارة له قيمته من الوجهة الصحفية !

فنظرت إليه بذهن شارد وقلت كالتخاطب لنفسى :

— وإذا سقطت الطائرة بالأستاذ ؟!

فأسرع يقول دون أن يتبصر في قوله :

— يكون أحسن وأتم ، فهو كذلك خير له قيمته من الوجهة

الصحفية !

فأفقت في الحال :

— شيء جميل !

— ١٣٦ —

وتنبه الصحفي لزلة لسانه وارتابك واعتذر :

— غرضى يا أستاذ ..

— غرضك ظاهر من أوله ، ...

— من يعلم ؟ ... ربما عدت إلينا بالسلامة ...

— ربما ! ؟؟

— قصدى أقول إنك إن شاء الله راجع بالسلامة منشراح

الصدر غير نادم على المخاطرة ، وما فاز باللذة إلا الجسور !

ومضى هذا الإبلis العصرى يزين إلى لا الهبوط من السماء

إلى الأرض ، بل ترك الأرض والصعود إلى السماء ! ويتحدث

عن جمال الرحلة الجوية فى ذاتها بغض النظر عن المقال المطلوب .

وتمت الغواية وقبلت آخر الأمر ، وانصرف عنى الصحفي راضياً

ظافراً فى الحالين مقاتلى أو حياى !!

وجلس أفكر قليلا . لقد كان على أن أسافر حقيقة إلى

الإسكندرية بعد يومين لحضور عقد زواج أحد الأصدقاء . وكان

على أن أصاحب « العريس » من القاهرة إلى الإسكندرية . فقلت

— ١٣٧ —

في نفسى :

— فكرة . لماذا لا أغرى « العريس » بالسفر معى في

الطيارة ...

ولم أضع وقتاً . وذهبت من فورى إلى ذلك الصديق السعيد
فأنبأته الخبر واقتترحت عليه هذا السفر فاصفر وجهه :

— طيارة ١٤

وأطرق يفكر فى « حجج » يتذرع بها دفعاً لهذا البلاء !
وكأنه اهتدى إلى إحداها فقال :

— أنسيت أن معى حقيبة كبيرة بها «الفراك » والقمصان
المنشأة وملابس أخرى داخلية وخارجية .

— اطمئن ! لكل راكب الحق فى ١٥ كيلو زيادة على وزنه .

فقال فى لهجة العزم القاطع :

— مستحيل !

— خفت ؟!

— ليس الخوف . لكنى لا أرى معنى للسفر بالطيارة .

— المعنى كل المعنى فى سفرك الآن بالطيارة . فأنت ذاهب إلى

بروسك التى تنتظرك . وليس أحب إلى قلبها من أن تعرف أنك
 ذاهب إليها طائراً من فرط الشوق . أنسيت قول ذلك الأعرابى
 الولهان :

أسرب القطاهل من يعير جناحه

لعلى إلى من قد هويت أطيرو
 عذر ذلك الأعرابى واضح . أما أنت فما عذرِكَ يا من تجدد في
 هذا العصر سرباً من « قطا » شركة مصر ذات الأجنحة القوية
 والمحركات الكهربائية ؟
 فلمعت عين صاحبى وأعجبته فكرة الطيران إلى عروسه .
 ووجد فيها شعراً وخيالاً . فأذعن وقال :

— غلبتنى .

وانصرف يعد العدة . وبقيت أنا أمتع نفسى بلذة الظفر بنجاح
 الإغراء . ولا أنكر أنى أحسست الاطمئنان يجرى فى دمنى . فأنا
 أخشى دائماً أن ينفرد بى « القدر » وجهها لوجه . ويخيل إلى أن
 بيننا مبارزة خفية سلاحها السخرية الخطرة . وأعتقد أنه ينبغي لى
 أن أختفى دائماً وراء منكبى رجل كتبت له السعادة . تلك هى
 « التهمة » التى تقينى شر القدر . إن من الأمثال الشعبية التى

أحفظها مثلاً أو من به : (ضع قدمك في « مركوب » السعيد
 تسعد) . وهذا « العريس » رجل سعيد طيب القلب والسريرة
 ممتلئ الجسم صحة وقوة وإيماناً بالحياة ولا أظن ساعة مثله قد
 حانت . ويخيل إلى أن من الناس من يشيح الموت عنهم بوجهه كما
 يشيح إبليس عن المصحف أو الصليب . من أجل ذلك حرصت
 كل الحرص أن أكون في ركاب هذا « السعيد » حتى لا يرانى
 القدر ولا يجروا على النظر إلينا بسوء .

وجاء يوم السفر وذهبت إلى المطار وجعلت عيناى الزائغتان
 تبحثان عن « العريس » فى كل مكان ؛ ودق الجرس ووقفت
 الطائرة المسافرة تأخذ مؤونتها من الزيت والبنزين . وتم وزنى مع
 عصاى « ستين » كيلو لا أكثر ولا أقل . وطلب إلى موظفو
 الشركة المبادرة بالركوب . فالتفت يميناً وشمالاً .

فقال لى أحدهم :

— أنتنظر أحداً ؟

فأومأت بالإيجاب . فقال :

— فات الوقت . ولن يأتى أحد والطيارة قائمة فتفضل ! .

عندئذ أدركت أن العريس قد هرب . وحدثتني نفسي أن
أتخلف أنا أيضاً وأعود أدراجي . ولكن موظف المطار استعجلني
قائلاً :

— من حسن حظك أنه ليس اليوم في الطائرة غيرك .
وجذبني من ذراعي في رفق ومشينا حتى دنونا من السلم المدلى
من باب الطائرة وليس بها أحد حقيقة . ولكن قد خيل إلى أني أرى
فيها شخصاً هو لا شك « القدر » أو « الشيطان » في شبه بذلة
رسمية سوداء وهو ييسم لي ابتسامة صفراء . فما تمالكت وقلت
للموظف في ذعر :

— أنا وحدي في الطائرة .
— نعم من حسن الحظ . فأنت كأنك قائم بطائرة خاصة .
— لا . لا .. أشكركم جداً . لا ضرورة لقيام طائرة خاصة من
أجلى ... هذا شرف عظيم ...

وأردت أن أبتعد عن السلم وأن أهرب من المطار .. ولكن ..
فجأة ظهرت سيارة تأتي بسرعة لمحت فيها الصحفي وكان قد
أخبرني أنه ربما جاء المطار لتوديعي . ولعله في واقع الأمر ما جاء

إلا ليطمئن ويرانى بعينه صاعداً فى الجو . فلم أجد مفزاً . وعدت
إلى السلم صاعراً وأنا ألوح له بيدى فى غير حماس رداً على تحيته
الخالصة وتوديعه الحار . وأجلسنى الموظف المختص فى آخر مقعد
قرب الذيل وأرانى مكان القطن أضعه فى أذنى إذا أزعجنى صوت
المحركات . وأرانى آنية من الورق تنفعنى إذا أصابنى دوار وقىء
وأقفل على الباب . ورفع السلم وأديرى المحركات . وارتفعت وأنا
أقول فى نفسى :

— إذا سقطت الطائرة فإن الجرائد ستنتشر الخبر تحت عنوان
« ولكن الله سلم » . وستزف التهانى إذ لم يكن بالطيارة من حسن
الحظ ركاب . فما أجمل هذه النهاية !!

ولم تلبث الطائرة أن امتطت الجو وثبتت عليه ومخرت فيه ولم
يعد يخيّل إلى أنى معلق فى فضاء . بل أن فكرة الفضاء نفسها قد
ذهبت من عالم إحساسى . وقلت فى نفسى :

— عجباً . كم من الأخطاء تسبح فى أذهاننا كأنها الجرائم .
كلمة « الفضاء » واحدة منها . ليس هناك فضاء . وإن الطائرة
لتسير على شىء هو أثبت مادة من الأرض تحت عجلات القطار

.. ونظرت من النافذة فإذا منظر لن أنساه . رأيت القطر المصرى
تحتى كأنه خريطة جغرافية كبيرة مصنوعة من الجبس الملون . وما
أنا إلا ذبابة أو مخلوق وهمى كمخلوقات « سوفيت » يركب
جناح بعوضة هائمة فوق هذه الخريطة . فهذا النيل العظيم بفروعه
ورياحاته ليس إلا قنوات صغيرة كقنوات الحارات فى اليوم
المطير ، يلعب فيها الصبيان و يقيمون عليها السدود من الوحل
والطين . وهذه المدن الصغيرة أو الكبيرة ليست إلا خلايا نحل
وأعشاش عصافير ، وهذه الحقول والغيطان فهى عجب آخر :
كل أرض مصر الخصبة ليست إلا سجادة « مودرن » برسومها
ذات الخطوط المربعة والمثلثة والمستطيلة . وقد صبغت بالأصفر
والأخضر والأسود . ألوان ثلاثة هى وحدها التى تلعب وتجربى
وتتوزع فى أنحاء هذه السجادة كأنها أنغام ثلاثة فى قطعة موسيقية
ولم أشعر قط أنى أتحرك . ولكنى كنت أشعر أن أحداً يحرك
قليلاً تحت أنظارى هذه السجادة .. هى التى تتغير فى أوضاعها
وتكشف لى عن بعض حدودها ودقائقها . أما أنا فشئ ثابت
ينظر من عل كأنه إله . وأمكنت النظر من الجهتين ومن النافذتين .

— ١٤٣ —

فرأيت طرف السجادة الغربى قد تهدل على شبه رمال ... إنها قد وضعت من غير شك فى صحراء . كما يضع الناسك سجادة الصلاة فى الخلاء .

و لم يمض قليل حتى جذبت يد خفية هذه السجادة فإذا بى لا أرى غير الصحراء تحت أنظارى ، كأنها بحر قد عبث النسيم بوجهه الصافى وأثار فيه تموجات خفيفة رقيقة لم تمسها بعد إصبع . تلك بقاع بكر من الصحراء لا يمكن أن تفاجئها غير عين الله وعين بعض الطيور النادرة ، أنا الآن أحدها بفضل هذه الأجنحة المصنوعة من القطن والخشب !

وذهب هذا البحر الأصفر . وبدأت عيني ترى أطراف ذلك البحر الأزرق يبرق عن بعد كأنه فص فيروز فى كف الكون وأطلت النظر واقترب منى البحر حتى انطرح تحت أقدامى عارياً كتمثال امرأة .. من البلور . ورأيت فيه الثغر صغيراً كأى يضحك ... عن بضع سفن شراعية بيضاء وبخارية كالأعي الأطفال . فعلمت أنى قد وصلت سالماً .

وهبط بى ذلك الجناح السحرى . فإذا أنا فى مطار الدخيلة وإد

— ١٤٤ —

الوقت الذى مضى بين القاهرة والإسكندرية لحظة كاللحم لم أفكر
أثناءها فى موت ولا فى حياة ...
لقد كنت فى عالم لا يعرف الموت والحياة : لقد كنت فوق
السحب !!

كن عدو للمرأة

صحت في يوم من أيام الربيع ، هب فيه على وجهي نسيم
لطيف ووقعت عيني على أغصان تمايل وأزهار مفتحة تتضاحك :
— أيها الشيطان ! يا شيطان الفن ! يا سجاني وجلادى !
أطلقني من أغلالك قليلا ! إني أريد الحب ! إني أريد المرأة !
فابتسم شيطاني ولم يزد على أن قال ساخرأ :
— المرأة مخلوق تافه !
— كلا .

— بلى . إنها ليست جديرة بك أيها الفنان الخلاق . إنها مخلوق
تافه ، صنعت من ضلع تافه من أضلاع آدم وخرجت الجنة
وأخرجته بسبب تافه . فهي في الحقيقة ما وجدت إلا لتحشو
ثغرات الحياة ، وتسد فراغ الأيام والليالي بالأشياء التافهة .
— ولكن المرأة هي التي تدخلنا النعيم .

— وهى التى تخرجك منه . وقد أخرجت آدم من قبل بالفعل .
 .. فاحذر أن تقبل جنة وناراً من صنع المرأة . واحرص كل الحرص
 أن تكون سيد نفسك ، وأن تصنع لنفسك نعيماً وجحيماً
 لاتعرفهما المرأة . إن جنتك لا ينبغي أن يكون فيها حية ولا تفاح .
 فهى جنة هادئة صافية .. جنة الفكر والتأمل والخلق والإبداع إذا
 دخلتها امرأة حلت فيها الفوضى ، وانفرطت عقود درها المنظوم ،
 وتحطمت تماثيلها المرمرية . أما جحيملك فهو مملوء بعذاب الشك
 والقلق الفكرى ، وعذاب القصور عن إدراك الكمال الفنى ،
 آلام لاتفهمها المرأة كذلك ولا يمكن أن تعترف بها . فأنت ترى
 أن فى نفسك « منطقة مقدسة » لا أسمح ولا ينبغي أنت أن تسمح
 لامرأة بالدنو منها .

— ولكنى أتوق أن أعيش لحظة مع امرأة !

— تستطيع أن تعيش دائماً مع شبح امرأة . ولكن أى امرأة ؟
 إن تلك التى سمحت لك بإدخالها جنتك ينبغي أن تكون امرأة
 لا ككل النساء . إنها النور بغير مصباح . وهى قطرات النشوة بغير
 خمر . هى عروس لها جسم المرأة وكل شئ جميل فى المرأة ، متدثرة

فى رداء من خيالك الذهبى ، وكل ما هو جميل فى نفسك قد أسبغته
أنت عليها حللاً رائعة . هى ملكة جنتك التى توحى إليك بخير ما
تخرج وما تبدع . فالمرأة التى لها شأن فى حياتك هى كما ترى ينبغى
أن تكون من صنع يدك ومن مخلوقات رأسك .

— إن الحقيقة أحياناً أبرع من الخيال ، وإن الحياة لقديرة أحياناً
أن تقذف إلى سطحها بلؤلؤة فى شكل امرأة تسطع من بين ملايين
أصدافها . فلماذا أيها الشيطان لا تسمح لى مرة بما سمحت به
للآخرين ؟

— لا أستطيع أن أسمح لك ، ولست أنت وحدك ، فلقد
وجدت هذه الأسطر الدامغة فى ورقة منفصلة بين مخلفات بيتهوفن
: «الحب ، ليس غير الحب ، هو وحده الذى يستطيع أن يجعل
حياتى سعيدة . آه يا إلهى دعنى أجدها أخيراً ، تلك التى فى
مقدورها أن تدعم فضائلى ، تلك التى قد سمح لى أن تكون زوجتى .»
..ومات بيتهوفن ولم يسمح له .

— لماذا ؟ .

— لأنك أيها الفنان عبقرية خالقة ، وجدت لتخلق وتعطى

— ١٥٠ —

لا لتسأل وتأخذ .

— مثل الطبيعة .

— نعم ، أنت والطبيعة سيان . كلا كما يعيش في الحرمان .

وكلا كما سر وجوده أن يعطى ولا يأخذ .

— آه ، ولكن الطبيعة قوية جبارة أما أنا فأدمى مسكين . إنها

لا تتألم أما أنا فأتألم إذ أرى الحياة تزول من تحت قدمى ولم يسمح

لى بحظ قليل من الهناء الذى يسخى به على بقية الآدميين !

— الآدميين ؟ ومن قال إنك منهم أيها الفنان ! عندما كتب

عليك أن تضع على منكبيك رداء « العبقرية والخلق » خلع عنك

فى الحال بعض خصائص الآدميين !

من الأبدية

لو كنت في الأبدية ماذا أشاهد ؟

لطالما خطر لى هذا السؤال كلما شاهدت جنازة مارة في الطريق . ترى لو سمع الميت ما يقال خلف النعش من الكلام ، ماذا كان يصنع ؟ لو علم أن هؤلاء المشيعين لا يتكلمون عنه طول الوقت . وأن فيهم من يستنزل عليه اللعنة إذا طال المشى ، ولم يبد بعد أثر المسجد الذى سيصلى عليه فيه . وأن منهم من يسلى نفسه وجاره في أثناء السير بحكايات ونوادير قد تدعو إلى الضحك والابتسام . وإن منهم من يتكلم في عمله وتجارته وبيته وغيظه . لو علم الميت أن كل ماخصه هو من كل هذا الكلام الذى يدور خلف خشبته لا يعدو دقائق معدودات ؛ وأن كل ما أنفق من وقت المشيعين فى الخشوع لجلال الموت لا يتجاوز لحظات . وأن الصمت الرهيب الذى كان يجب أن يحيط بنعشه لم يدم أكثر من

دقيقة ، ثم بدأ الحمس يعلو ، والهمهمة ترتفع ، والكلام والثرثرة يدويان بين الصفوف في طنين كطينين الذباب ، ذلك أن الناس غير قديرين على نسيان أنفسهم والسمو عن هذه الأرض والارتفاع عن شؤون حياتهم العادية الصغيرة أكثر من خمس دقائق .

ومع ذلك ، لماذا نريد من الناس الوقوف أمام الموت موقفاً أجلاً من هذا ؛ إن الموت لا يجل ولا يعظم حقاً إلا في نظر من يموت ، في تلك اللحظة التي يشعر فيها المحتضر أنه مفارق هذه الدار التي عرفها وعرف أهلها إلى مكان مجهول ، فراقاً لاربعة بعده . في تلك اللحظة يرى المحتضر الدنيا تبعد عنه كما تبعد المحطة عن أنظار المسافر في قطار . ويرى دموع المودعين من الأهل والخلان تتساقط على باقات الأزهار يقدمونها إليه فيخيل إليه أن ذهابه سيغير وجه الأرض . ولا يعلم أن هؤلاء المودعين سينصرفون من باب المحطة إلى شئونهم ضاحكين كأن لم يحدث شيء . ترى لو رأى الميت كل ذلك في صندوقه وأعطى القدرة على الخروج منه والنهوض . أما كان يصيح في الناس :

— أأسمون أنفسكم مشيعين ؟ انصرفوا أيها اللكعاء !

إني شخصياً لا أعتقد أن الميت يفعل ذلك أو يقوله لو قدر عليه . إن الميت إذ يجتاز عتبة العالم الآخر ويدخل منطقة « الصفاء » ينظر إلى الناس وأحوالهم من عل كما ينظر الإنسان إلى سرب من النمل يحمل جناح صرصار إلى ثقب في أسفل الجدار . إنه يستكثر على الناس مجرد التحرك في تابوته لينظر إلى ما يفعلون . إنه يستكثر على المادحين والقادحين حتى مجرد ابتسامة سخرية تعلق شفثيه الجافتين الباهتتين .

فهذا السؤال الذي ألقيته على نفسي لا معنى له عند الميت . إنما هو سؤال يملية علينا غرورنا نحن الأحياء .

على أنى على كل حال لو تمنيت شيئاً بعد الموت . لرغبت في أن أقول أنا رأيي في الناس وقد تركتهم ، قبل أن يقولوا هم عنى شيئاً وهذا مستطاع . وقد فعل ذلك فيما أعلم أحد الأمريكان أو الإنجليز غريبى الأطوار . إذ سجل خطبة له في أسطوانة فنوغراف وأوصى المشيعين أن يطلقوها على قبره تنطق بصوته وأنفاسه وضحكاته وكلماته . فماذا يمنعنى من أن أصنع مثله . وأن أقوم في الناس خطيباً بعد موتى أقول فيهم :

« سيداتى وسادتى :

« أولاً .. فلتجفف السيدات أعينهن حتى لا يضيع كلامى بين الشبهات ، وحتى لا تضيع الدموع طلاء وجوههن وصبغة شفاههن. وهذا هو المهم . فإنى ما زلت حريصاً على أن تكون المرأة جميلة . فالجمال هو العذر الوحيد الذى به نغفر للمرأة كل تفاهتها و حماقتها . عفواً . لقد نسيت أنى ميت وأنه ما كان يليق بى أن أوجه إليكن أيتها السيدات هذه الألفاظ فى مثل هذه اللحظة الرهيبة ، أتنن ولا ريب تصغين إلى الساعة والغيط باد عليكم ، ولولا جلال الموت ، لألقين على قبرى أحذيتكن ذات الكعب العالى ، إن كل ما ستفعلنه الآن عقاباً لى وامتهاناً لشأنى هو أن تخفين فى الحال مناديل العبرات العاطرة وتخرجن أصابع الأحمر الناضرة ، وتنظرن فى مرآة الحقيية الصغيرة وتهزرن أكتافكن قائلة إحداكن للأخرى : « والنبي الدموع فيه خسارة ! » وهذا ما أريد أن أصل إليه . وهذه نصيحتى الثمينة لكن معشر الأحياء من النساء : حذار أن تتلفن هدباً واحداً من أهدابكن الجميلة من أجل شىء على هذه الأرض . فإن الأرض كلها لا تساوى هدباً واحداً

من أهذا بكن !

« أما أنتم أيها الرجال والأصدقاء والمعجبون ، المرتدون السواد على فقيد الأدب ، المحزونون لفداحة المصاب الجلل ، الباكون لما رزئت به العربية والناطقون بالضاد .. إلى آخر هذا الهراء الذى سيملاؤه خطباءكم وشعراؤكم تلك المرائى البليغة والقصائد العصماء .. وإنى لألمح الساعة جيوب بعضكم منتفخة بشعر ونثر قد كتب خاصة للتأيين . ولعل أكثره قد وضع قبل الاحتضار حتى يكون معداً للإلقاء فى الوقت المناسب . ولعل لإحدى تلك القصائد قد نشرت اليوم فى صحف الصباح بينما نشر إلى جانبها خبر الوفاة . كأنما القصيدة العصماء قد خرجت من صدر صاحبها ساعة خروج روجى من صدرى ! لم كل هذا الإسراع ؟ ألا يتركنى الأدب وشأنى وقد صرت تراباً . أياظل يلاحقنى شيطان الفن ويصيح فى أثرى وأنا أفر منه إلى عالم أرجو أن لا أرى وجهه فيه . أما يكفيه أنه أضاع على حياة نابضة . أنا الذى صنعه خالقه من لحم ودم ، ووضعته فى دنيا جميلة زاهرة ، وقال له : « انطلق وعش حياتك فى هذه الحياة » . فلم أفعل ذلك . ولكنى أحلت

لحمى ودمى إلى ورق ومداد . آه .. إنكم لو أنصفتُم معشر المشيعين
لوضعتم جثتى مع كتبى وأشعلتم النار فى كل هذا . عجباً . إلى
أبصر أحدكم وهو شاب فيما أرى لا يريد أن يصدق ما أقول . وإن
فمه ليرتجف كأنما هو يريد أن يصرخ متحمساً : « فى ذمة
الخلود ، فى ذمة الخلود ! » .

« أيها الصديق الصغير ليس من اللطف أن أضحك الساعة
منك ومن « خلودك » ، وأن أبدد تلك الأحلام التى تخيم على
عشرين ربيعاً من حياتك النضرة كما تخيم خمائل الأزهار على خلوة
المحبين ، ولكنى أقول لك إن كلمتك هذه إن صلحت لسنك
وكان لها عندك أعظم المعانى ، فأنها عندى الآن لا معنى لها ؛
ولست أدرى ماذا تقصد بها ! تقصد أنى قد أكون تركت لكم
بعض آثار ربما بقيت . فليكن . ماذا يهمنى أنا من ذلك ؟

« وبعد ... لا أحب أن أستبقيكم وقوفاً أمام قبرى أكثر من
ذلك فإن من بينكم من قد ارتبط بمواعيد سابقة وهو يختلس النظر
فى ساعته من آن لآن . وليس عندى بعد ما أقول لكم ، غير أنى
أرى فى أوائل صفوفكم أصدقاء لى لا يمكن أن أستخف بعواطفى

— ١٥٩ —

نحوهم . ولعل صداقتهم هى خير ما خرجت به من تلك الدار .
« والآن ، اسمحوا لى أن أسكت سكرتى الأبدى وأنا أرجو
منكم أن تنصرفوا إلى شؤونكم كأنه لم يحدث شىء فلسـت فى
حاجة إلى كلامكم ؛ وإذا أردتم أن تعقبوا على قولى هذا بشىء فى
دنياكم تلك ، فضعوا مكان أسطوانتى هذه : أسطوانة موسيقىة
لأحد الموسيقيين الذين كنت أحبهم ، تلك هى اللغة الوحيدة التى
أستطيع أن أفهمها عنكم فى كل وقت ... والوداع » .

— ١٦٠ —

فهرست

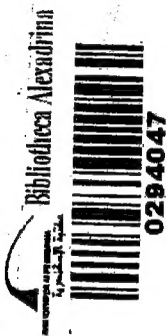
صفحة

| | |
|-----|--------------------------|
| ١١ | عهد الشيطان |
| ٢٧ | في النوم |
| ٣٧ | راديو السعادة |
| ٥١ | في حانة الحياة |
| ٦٣ | حقوق على نفسى |
| ٧٥ | مع الأميرة الغضبية |
| ٨٥ | أمام حوض المرمر |
| ١٠٣ | بين الحلم والحقيقة |
| ١١٩ | عدو إبليس |
| ١٣٣ | فوق السحب |
| ١٤٥ | كن عدواً للمرأة |
| ١٥١ | من الأبدية |

رقم الإيداع ٨٨ / ٣١٠٨

الترقيم الدولى ٥ — ٣٨٦ — ١١ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - النجالة



الثلث ٣٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه